صفات اليهود
في الكتاب والسنة
والتحذير من مشابهتهم

تأليف الشيخ
د. محمد الحمود النجدي

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
مجمع الشيخ عبدالله المبارك الصباح الخيري

صِفَاتُ اليَهُودِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
مجمع الشيخ عبدالله المبارك الصباح الخيري

تلفون : ٢٤٨٠٩٠٢٢ - فاكس : ٢٤٨٨٢٥١١
داخلي : ٢٢٩
الخط الساخن : ٩٤٤٧٦٥٥١

موقع المؤلف على شبكة الأنترنت
al-athary.net

صفات اليهود
في الكتاب والسنة
والتحذير من مشابهتهم

تأليف الشيخ
د. محمد الحمود النجدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فاليهود ألد أعداء أمة الإسلام، بنص كتاب الله تعالى وخبره الصادق، وحكمه العادل، إذ يقول سبحانه وتعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ (المائدة آية ٨٢).

فهؤلاء الطائفتان أشد أعداء الإسلام والمسلمين على الإطلاق، وأكثرهم سعياً في الإضرار بهم، والكيد لهم، وذلك لشدة كفرهم وبغضهم وعنادهم للمسلمين، وحسدهم وبغيهم عليهم.

واليهود أشد الطائفتين لأن الله تعالى بدأ بهم، وقد تجلى ذلك بوضوح في حربهم الأخيرة على إخواننا في غزة، وما حصل منهم من بغي وحصار ظالم، ثم عدوان وحشي أحرق الأخضر واليابس، ولم يفرق فيه بين صغير وكبير، ولا رضيع وعجوز، ولا مدني ومقاتل، بل استهدف الجميع بقتل شبه جماعي، وإبادة بلا هوادة، بل تم تدمير المساجد بيوت الله على رؤوس المصلين أثناء صلاتهم، وضرب المدارس بمن تؤوي من الأهالي والأطفال، والمساكن وهي

مليئة بالعوائل الفارة من جحيم القصف بالصواريخ الهائلة، التي مزقت أجسادهم ودفنتهم تحت الركام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

لذا كان من الضروري للمسلم أن يتعرف على صفات هذه الزمرة المجرمة المذكورة في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، لأنهم أعداؤه مدى الدهر، وأبد الأيام، مهما حاولوا الظهور بغير ذلك وزخرفوا، وخادعوا البسطاء والجهلة بدينهم، ومهما دعوا إلى السلم والسلام، فإنهم كذابون دجالون، فأفعالهم تكذب أقوالهم، والأيام خير شاهد.

وإذا رجعت إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية، تجد أنهم ذكروا كثيراً بصفاتهم وأخلاقهم وأحوالهم، وفي قصصهم تجيء الآيات تلو الآيات، بل سورة في القرآن باسمهم سورة بني إسرائيل (سورة الإسراء) وما ذاك إلا لشدة خطرهم وضررهم وبيان صفاتهم.

وكذلك لأجل أن يحذر المسلم الوقوع فيما وقعوا فيه، من الأخلاق والمخالفات والمعاصي، فيصيبه ما أصابهم من العقوبات والمصائب والبلايا.

وذلك أن سنة الله تعالى في خلقه واحدة، لا تتبدل ولا تتغير، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾(الفتح: ٢٣). فمن أطاع الله ورسوله كانت له السعادة والفلاح والنجاح والنجاة، والعز والنصر والتمكين في الدنيا والآخرة، ومن عصى وتمرد وعاند واستكبر، عومل بنقيض ذلك من الشقاء والبلاء، والذلة والاندحار، وتسلط الأعداء.

والتاريخ القديم والحديث، والحس والواقع خير شاهد على صدق القرآن،

وما أخبر به الرسول الأمين صلوات الله عليه وسلامه.

وقد قال نبينا ﷺ محذراً: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» [1].

وأخبر أن طوائف من أمته ستتبع أخلاق اليهود والنصارى وتعمل بعملهم، فيعاقبهم الله كما عوقبوا، فقال ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضبٍ لسلكتموه»، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[2].

وفي رواية الحاكم: عن ابن عباس مرفوعاً: «لتركبُن سُنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو أنَّ أحدَهم دخل جُحْر ضبٍّ لدخلتم، وحتى لو أنَّ أحدَهم جامع أُمه بالطريق لفعلتموه»[3] .

والآن... إلى بيان ماجاء في صفاتهم في القرآن الكريم، والسنة النبوية.

١- أخرجه ابن بطة بإسناد جيد.

٢- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٤٨)

١- معرفة الحق وكتمانه والتواصي فيما بينهم على ذلك

قال تعالى ناهياً لهم عن هذا الخلق السيئ ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٤٢).

فنهاهم عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وعن كتمان بيان الحق الذي يعرفونه، لأن المقصود من العلم أن يهتدي به الضالون، وتقوم به الحجة على المعاندين، ويتميز به الحق من الباطل.

وقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٧٦).

وهذا حال منافقي أهل الكتاب، أنهم يظهرون بألسنتهم للمسلمين خلاف ما يبطنون.

ومن أعظم ذلك: كتمانهم صفة النبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، ومحوهم لها، وتبديلهم أوصافه، قال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة: ١٤٦-١٤٧).

وقال ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

فاليهود يجدون اسم النبي محمد ﷺ وصفته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، وكان ينبغي أن يكون هذا من أعظم الدواعي لهم إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه، وقد كانوا يبشرون ببعثته قبل أن يبعث، كما قال الله عنهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩).

وعن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا: لما كنا نسمع من رجال يهود - وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا - وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور- فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله النبي ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرنا إليه فآمنا به، وكفروا به ففينا وفيهم نزلت الآيات من البقرة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩) [١]

١- أخرجه ابن إسحاق في السيرة وغيره، وهو حديث حسن.

ومن صفته عندهم، ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ «محمد رسول، عبدي ورسولي، سمَّيته المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أُقيم به الملة العَوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

فهم كانوا يعرفون أن محمداً ﷺ رسول الله، ويتيقنون ذلك كما يتيقنون أبنائهم، بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم من الناس، ولكن أكثرهم كتموا هذه الشهادة، وكفروا بالنبي الأمي العربي ﷺ، وقالوا: إن الصفات الموجودة في كتبهم، لا تنطبق على محمد ﷺ ! وليس هو المراد بها!

٢- تحريفهم لكلام الله تعالى وكتبه، وكلام رسله صلوات الله عليهم

إما لفظاً وأما معنىً، قال الله سبحانه فيهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

أي: لا تطمعوا في إيمان من هذه صفته وحاله، من تحريف كلام الله تعالى وتبديله، من بعد ما عقلوه وعرفوا معناه الحق، فيضعون له معاني باطلة من عند أنفسهم ما أرادها الله تعالى، يوهمون الناس أنه المعنى الذي أراده الله، كذباً وافتراءً وجرأةً على ربهم. وقال تعالى أيضاً: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٤٦).

ومن تحريفهم لكلام الله تعالى: تحريفهم لصفة النبي محمد ﷺ في كتبهم، وادعائهم أنها لا تنطبق ولا تصدق عليه، ولم يقصد بها، بل المراد بها غيره!!

ومن تحريفهم للمعنى: قولهم ﴿وَرَاعِنَا﴾ قصدهم بذلك الرعونة! والطعن والعيب للرسول ﷺ، قبحهم الله! ويوهمون السامع أنهم يريدون: ارعنا سمعك، ولهذا قال سبحانه ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

وكان الواجب عليهم حسن الخطاب والأدب مع نبيه الكريم ﷺ، في سؤاله والتعلم منه، بل والدخول في دينه وفي طاعته.

وقد عوقبوا بذلك كما قال سبحانه في آخر الآية ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد توعدهم الله عز وجل أيضاً على هذا التحريف والتبديل لكلامه، فقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

أي: فويل لهم من عذاب الله لتبديلهم كلامه، وتحريفهم لمراده، وويل لهم مما يكسبون جراء هذا التغيير والتبديل من عرض الدنيا وحطامها، فإن الدنيا بأسرها، تعد ثمناً قليلاً بالنسبة للآخرة العظيمة التي لا تفنى ولا تبيد.

وهذه الصفة السيئة - من تحريف اللفظ أو المعنى وهو أكثر - انتقلت إلى أهل الأهواء والبدع المنتسبين إلى الإسلام، الذين حرفوا معاني القرآن والسنة الحقة، إلى ما لا يريده الله ورسوله من المعاني الباطلة.

فقالوا في قوله تعالى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني: استولى!! و﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ قالوا: أي قدرته! و﴿رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ قالوا: هي نعمته وإحسانه! وفي ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ جاء أمره! وفي «نزوله إلى السماء الدنيا» نزول أمره! أو نزول ملائكته! وهكذا... صرفوا النصوص عن معانيها الحقة، إلى معانٍ باطلة من عندهم، ليست هي مراد الله تعالى، ولا مراد رسوله ﷺ.

وتحريف اليهود لكلام الله تعالى وتبديله موجود إلى يومنا هذا، سواء كان مكتوباً أو مسموعاً أو مقروءاً، أو مرئياً، في الأخبار المحلية والعالمية، والمواقف الدولية، والعلوم وغيرها فيجعلون ما لغيرهم لهم، ويظهرون المظلوم في صورة الظالم والعكس، فسبحان الله العظيم.

ومن ذلك التحريف العظيم: افترائهم لكتابهم (التلمود) والذي هو موسوعة تضم كل شيء عن هواجس وخرافات بني إسرائيل! ويدعون أنه متلقى عن موسى عليه السلام، ويعطي اليهود - عليهم لعنة الله - التلمود أهمية كبرى، لدرجة أنهم يعتبرونه الكتاب الثاني، أو المصدر الثاني للتشريع بعد التوراة.

وكلمة التلمود كلمة عبرية تعني: الشريعة الشفوية والتعاليم، وهو كتاب تعليم الديانة اليهودية لكل ما فيها من رموز وشطحات، وسفاهات وأحقاد على العالم.[1]

مع أن الله تعالى قد امتن عليهم بنعمة إعطائهم التوراة، التي فيها الشرائع والأحكام، والهداية إلى طريق الفلاح، والفوز بالسعادة في الدارين، كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٥٣).

١- انظر كتاب نهاية اليهود - أبو الفدا محمد عارف وغيره.
وصدق فيهم قول القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وهو تحذير لهذه الأمة أيضاً من هذه الخصلة الذميمة، كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين:
«شَبَّه الله تعالى من حمَّله كتابه ليؤمن به ويتدبره، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب؟! فقراءته بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم لنصوصه، شبهه بحمار يحمل على ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا! فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره!
فهذا المثل - وأن كان قد ضرب لليهود- فهو متناول من حيث المعنى، لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

وسماها الله فرقاناً، لتميزها الحق من الباطل، والخير من الشر، لكن ماذا كان موقفهم منها؟ إنه موقف الجاحد لنعم الله! إذ أعرضوا عنها، وامتدت أيديهم إليها فحرفوها، كما شاءت أهواؤهم وشهواتهم كما ذكرنا.

ولقد شبههم القرآن في تركهم تدبرها، والعمل بما فيها، بالحمار يحمل كتباً لا يدري ما فيها. فقال سبحانه ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٥). والسفر الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء.

فمثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة، وكلفوا العمل بها، ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بما جاء فيها، واستحبوا العمى على الهدى، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب العظيمة، لكنه لا يدري ما فيها، فلا يناله إلا التعب والكد والثقل. وكل من علم ولم يعمل، وباع دينه بدنياه، فهذا مثله، وبئس المثل مثله.

٣- نقض العهود

فكم من عهد نقضوه، وميثاق نكثوه، مع ربهم سبحانه، ومع أنبيائهم عليهم السلام، ومع الرسول محمد ﷺ وأصحابه، والمسلمين والخلق عموماً على مر العصور.

قال سبحانه عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ١٠٠).

فقوله ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ تفيد التكرار، والسبب: أنهم لا يؤمنون، فهذا الذي دفعهم إلى نقض العهود والمواثيق، ولو أنهم صدقوا في إيمانهم، لكانوا ممن قال الله فيهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣).

أي: وفَّى المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ بعهدهم مع الله تعالى، وأتموه وأكملوه، حتى بذلوا أرواحهم في سبيل الله تعالى ومرضاته.

وهذا كان منهم رضي الله عنهم في غزوة الأحزاب.

وقال أيضاً ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (المائدة آية: ١٣). فبسبب نقضهم للعهود عاقبهم الله بعدة عقوبات:

الأولى: قوله ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ أي طردهم الله تعالى وأبعدهم من رحمته، بما قدمت أيديهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الرحمة.

الثانية: جعل قلوبهم قاسية لا تستجيب لربها، ولا تتأثر بمواعظه، ولا تخاف من وعيده وتهديده، ولا تنفعها المواعظ، وهذا من أعظم العقوبات والمصائب.

الثالثة: أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: ابتلوا بالتحريف والتبديل لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

الرابعة: أنهم ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ من التوراة والإنجيل، فنسوا علمها، أو أضاعوه، وكذلك نسوا العمل بما جاء فيها، فلم يوفقوا للقيام به، عقوبة من الله تعالى.

الخامسة: الخيانة المستمرة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ الخيانة لله سبحانه، ولرسوله ﷺ، ولعباده.

قال الشيخ السعدي: «وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم، فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة، وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية».

وهم بهذه الصفة - وهي نقض العهود - قد استحقوا أن يكونوا شر الدواب منزلة عند الله عز وجل، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال آية: ٥٥-٥٦).

أي: هؤلاء الذين جمعوا بين هذه الخصال الثلاث: الكفر وعدم الإيمان والخيانة، هم شر الدواب، فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لبعدهم عن الخير.

فهم لا يثبتون على عهدٍ عاهدوه أبداً، ولا يلتزمون قولاً قالوه دائماً، ولو أكدوه بالأيمان المغلظة.

ولهذا كان جزاؤهم التنكيل بهم في الحروب، والتشريد بهم، فقال سبحانه ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾(الأنفال: ٥٧) أي: غلظ عليهم العقوبة، وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء، ويكونوا لهم عبرة.

ولهذا لم يبق أمام النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن نقض اليهود من بني قريظة عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤوا أعداء المسلمين، وألا يظاهروا على المسلمين بأي نوع من أنواع المظاهرة أو المعاونة إلا عقوبتهم والتنكيل بهم، فإنهم لما قدم جنود الأحزاب ونزلوا على حدود المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وساءه ذلك وشق على المسلمين جداً، فلما أيد الله رسوله ﷺ والمؤمنين ونصرهم وكبت أعدائهم ورَّدهم خائبين، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووضع السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدَّى له جبريل عليه السلام، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: « نعم » قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها. وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة.

وكانوا على أميال من المدينة، فقال ﷺ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» وتبعهم هو ﷺ، ثم حاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عنها، الحصار، نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس لأنهم كانوا حلفاؤه في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم، فجيء به وكان قد أصيب في أكحله، فلما جاء إليهم قال: إني أحكم أن تُقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة» وفي رواية: « لقد حكمت فيهم بحكم الملك».

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فَخُدَّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم ينبت – أي من لم يبلغ – منهم مع النساء والأموال.

ولهذا قال الله تعالى في كتابه ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٦ – ٢٧).

وقوله ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ لأنهم مالئوا المشركين على حرب النبي ﷺ وأخافوا المسلمين، وأرادوا قتلهم واستئصالهم لتكون لهم العزة في الدنيا، فقلب الله عز وجل الحال، فذلوا بعد عزة، وأرعبوا بعد طمأنينة، وقتلهم الله عز وجل، وباؤوا بالصفقة الخاسرة.[1]

١- انظر حسن التحرير (٣/٤٥٠).

٤- الخِيَانَة

الخيانة طبع وخلق متأصل في اليهود ومستمر، كان ولا يزال فيهم، كما قال سبحانه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (المائدة آية: ١٣).

والخائنة: الخيانة، والخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تزال تطلع على غدرهم ومكرهم وخيانتهم لك ولأصحابك، كل حين.

قال الإمام الطبري بعد أن ذكر قول مجاهد وعكرمة في الآية: «إنهم اليهود الذين هموا بالنبي ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم».

قال: والصواب من التأويل في ذلك: القول الذي رويناه عن أهل التأويل، أن الله عنى بهذه الآية القوم من يهود بني النضير الذين همُّوا بقتل رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ أتاهم يستعينهم في دية العامريين، فأطلعه الله عز ذكره على ما قد هموا به.

ثم قال له جل ثناؤه بعد تعريفه أخبار أوائلهم، وإعلامه منهج أسلافهم، وأن آخرهم على منهاج أولهم في الغدر والخيانة، لئلا يكبر فعلهم ذلك على نبي الله ﷺ فقال جل ثناؤه: ولا تزال تطلع من اليهود على خيانة وغدر ونقض عهد [1].

وسيأتي الكلام عن محاولة قتلهم النبي ﷺ في صفة قتلهم الأنبياء.

١- تفسير ابن جرير (٨/ ٢٥٤).

وقوله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لم يخونوا ولم ينقضوا العهد، مثل عبدالله بن سلام وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام.

والخيانة أمر مستمر فيهم كما، تفيده الآية بقوله ﴿وَلَا نَزَالُ﴾ وكذا قوله تعالى:﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ١٠٠).

٥- الإفساد في الأرض

وهذا أيضا ديدنهم وطبعهم الدائم فيهم، قال سبحانه وتعالى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(المائدة: ٦٤).

وكلمة ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ من السعي وتدل على الاجتهاد في ذلك، والجد في نشر الباطل والشر والمعاصي والفساد بأنواعه، وإثارة الفتن، والكيد للإسلام وأهله، وصد الناس عنه.

قال الحافظ ابن كثير[1]: «أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته».

وقال تعالى أيضاً عن هذه الخصلة الذميمة فيهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤).

أي: قد تقدم إخبار الله لهم في كتابه الذي أنزله إليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي: يحصل منهم تجبر وطغيان على الناس، وفجور وتمرد على الله تعالى ورسله ودينه.

روى الإمام الطبري عن الربيع في قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ

١- حسن التحرير (٢/ ٧٢).

وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (الإسراء: ٤ - ٦).

قال: «كان الفساد الأول، فبعث الله عليهم عدواً، فاستباحوا الديارَ، واستنكحوا النساء واستعبدوا الولدان، وخربوا المسجد، فغَبَروا زماناً، ثم بعث الله فيهم نبياً، وعاد أمرهم إلى أحسن ما كان، ثم كان الفساد الثاني بقتلهم الأنبياء، حتى قتلوا يحي بن زكريا، فبعث الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ (ملك بابل)، فقتل من قتل منهم، وسبى من سبى، وخرَّب المسجدَ، فكان بُخْتَنَصَّرَ الفسادَ الثاني» [1].

وقال الإمام الطبري في الآية: «ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته، ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه، وذلك سعيهم فيها بالفساد، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يقول: والله لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه».

ولهذا فهم في جميع استطلاعات الرأي: أكثر الشعوب في العالم إثارة للمشاكل.

١- تفسير ابن جرير (٨/ ٥٥٩).

٦- حرصهم على إيقاد الحروب

فكلما قويت شوكتهم، واتسع نفوذهم، زاد مكرهم وإفسادهم، وسعيهم لإيقاد العداوات والبغضاء في العالم، والتحريش بين الأفراد والجماعات والدول، وإثارة الحروب والنزاعات في الأرض، يبدؤون ويعيدون، ويجلبون بخيلهم ورجلهم.

قال الله تعالى فيهم ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (المائدة آية ٦٤).

قال القاسمي[1]: «أي: كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شر عليه، ردهم الله سبحانه وتعالى، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها عنه شرهم.

أو: كلما أرادوا حرب أحد، غلبوا وقهروا، ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد قط .

فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب،... وإطفاء النار على (المعنى) الأول عبارة عن دفع شرهم، وعلى الثاني غلبتهم».

فكلما سعوا في حرب خذلهم الله عز وجل، وفرق جمعهم، ونصر المسلمين عليهم، وقد يدالون على المسلمين بمعاصيهم وبعدهم عن دينهم، والله المستعان، وبه الثقة، وعليه التكلان.

١- تفسير القاسمي (٣/ ١٦٧).

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: لا يحب من هذه صفته، بل يبغضه أشد البغض، وسيجازيه على ذلك.

وقد دعاهم الله تعالى بعد ما ذكر عنهم ما ذكر، إلى التوبة والإيمان والعمل الصالح، وترك الباطل والشر والإفساد في الأرض فقال ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المائدة: ٦٥).

وهذا من كرم الله تعالى وجوده، أنهم لو آمنوا بالله وجميع رسله وجميع كتبه، واتقوا الله، لكفَّر الله عنهم سيئاتهم مهما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم فسبحان الكريم الرحيم.

٧- التطاول على ذات الله تعالى

لقد بلغ من عتو اليهود وشرهم، أنه لم يسلم أحد من شرهم وإيذائهم وافترائهم، حتى ذات الله جل جلاله وتقدست أسماؤه، حيث جاء في القرآن بعض ما وصفوا به ربهم، مما لا يليق به وبجلاله وكماله وجماله.

فمن ذلك قول الله عز وجل عنهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ (المائدة: ٦٤).

ففي الآية إخبار عن مقالة اليهود الشنيعة، عليهم لعائن الله، حيث قالوا: إن يد الله تعالى مغلولة، أي موثقة، يعني: عن الخير والإعطاء، أي وصفوه بالبخل! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وقد رد الله تعالى عليهم: ما قالوه وافتروه واختلقوه، فقال ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم، وهكذا وقع لهم، وانطبق عليهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن، ما ليس عند غيرهم من خلق الله تعالى.

قال السعدي: «فكانوا أبخل الناس، وأقلهم إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله، وأبعدهم عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي».

ثم قال تعالى رداً عليهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ قال الحافظ ابن كثير: «أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيءٍ إلا

عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمةٍ فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤) والآيات في هذه كثيرة».

فيده سبحانه سحَّاء الليل والنهار - كما ورد في الحديث الصحيح - مدراراً في جميع الأوقات والأحوال، بل خيره وبره عم الجميع، البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كلاهما يرتع في خيره ورزقه وفضله، لا يمنع منه عاصياً، وفضله على أوليائه أعظم وأبقى فسبحان الملك العظيم، البر الكريم، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه تعالى، وقبح من وصف ربه بما لا يليق بعظمته وكبريائه.

ومن تطاولهم على ربهم أيضاً: قولهم عن الله تعالى شأنه بأنه: فقير! فيقول سبحانه فيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١).

وهذه مقالة شنيعة أخرى يذكرها الله عن هؤلاء المتمردين، وأخبر أنه سمعها منهم، وأنه سيكتبها عليهم ويحفظها - وهو تهديد لهم ووعيد - مع أفعال أخرى لهم شنيعة، وهي قتلهم الأنبياء البررة النصحة لهم، وأنه سيجازيهم على ذلك العذاب الأليم المحرق.

روى الإمام محمد بن إسحاق بسند حسن: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيت المدارس، فوجد من يهود أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم،

ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً ﷺ رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير! ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا! وإنا عنه لأغنياء! ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويعطناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا! فغضب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)[1].

ومن سوء أدبهم مع الله تعالى ومع رسله أيضاً: ما حكاه الله عنهم من ردهم القبيح، وفي نكولهم عن الجهاد مع موسى عليه الصلاة والسلام، وتخلفهم عن نصرة دينهم، وقتال عدوهم، في قوله سبحانه ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

١- رواه ابن أبي حاتم - انظر حسن التحرير (١/ ٣٠٩).

فما أشنع وأقبح هذا الكلام؟! الموجه منهم لله تعالى ورسوله، في مقام حرج، وحال ضيق، دعاهم فيه إلى نصرة الله ورسوله ودينه.

في حين قال الصحابة الكرام لرسولهم ﷺ حين استشارهم للقتال يوم بدر ولم يكن واجباً عليهم، قالوا له: والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك[1].

وفي رواية لأحمد والنسائي: «قالت الأنصار: والذي بعثك بالحق، لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك».

ومن سوء أدبهم مع ربهم: أنهم طلبوا - وبكل وقاحة وجهالة - من نبيهم موسى عليه السلام أن يريهم الله تعالى جهرةً وعلانيةً! وهو مما لا يطاق ولا يستطاع لهم كما هو معلوم، وذلك بعد أن تبينت لهم آيات الله عز وجل، وآمنوا به وبرسوله عليه السلام، قال سبحانه في ذلك ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥).

أي: لن نؤمن لك حتى نرى الله عياناً، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا، فأخذتهم الصاعقة، صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زلزلةً أو رجفاً، قاله ابن جرير وأهل التفسير.

وقال تعالى أيضاً في ذلك ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا

١- رواه البخاري وأحمد.

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ ﴾ (النساء: ١٥٣).

فقوله تعالى ﴿ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ توبيخ من الله جل ثناؤه، وتقريع لهم، لجهلهم بالله العظيم الخالق البارئ، ونقص عقولهم، وجرأتهم عليه، واغترارهم بحلمه عنهم، وصبره عليهم، وتوضيح ذلك لهذه الأمة وغيرها من الناس، ألا يقعوا فيما وقعوا فيه من هذا الذنب الذي استحقوا به عقوبة الله سبحانه بالصاعقة المهلكة.

ومن ذلك أيضاً: قول الله تعالى ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

وذلك بعد أن أنجاهم الله سبحانه من عدوهم، من فرعون وقومه، وأهلكهم الله وبنو إسرائيل ينظرون، وذلك من كفرهم بالله تعالى وجهلهم وسفههم.

قال السعدي: «وأي جهل أعظم من جهل الإنسان ربه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟!

ولهذا قال لهم موسى عليه السلام ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل، وغايته باطلة.

﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا ﴾ أي: أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه الكامل في ذاته، وصفاته وأفعاله ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله، وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراد الله وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه».

٩- قتل الأنبياء والرسل

وهـذا لـم يتصف به أحـد من كفار الأمم جميعاً سـواهـم، قـال تعالـى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم، بسبب استكبارهم عن إتباع الحق وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم!

فلا كفر أعظم من هذا، أنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس» يعني: رد الحق، وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاظم عليهم.

ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا، موصولاً بذل الآخرة، جزاءً وفاقاً.

وروى الإمام أحمد: عن عبدالله يعني ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة،

وممثل من الممثلين»[1].

وقوله تعالى عن قتلهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة في بيان شناعة فعلهم، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق أبداً، وأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عن عناد واستكبار، لا عن جهل وعدم علم.

وقال تعالى أيضاً: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧).

هذه معاملة بنو إسرائيل لأنبيائهم، أسوأ معاملة وأقبحها، فريقاً يكذبونه، وفريقاً يعتدون عليه فيقتلونه، وذلك لأنهم كانوا يأتونهم بما لا يشتهونه، من الأحكام المخالفة لأهوائهم وآرائهم، مما حكم الله تعالى به في التوراة والإنجيل، وخالفوه هم بأفعالهم وأحكامهم، ولذلك أدى بهم الحال إلى تكذيب بعضهم، بل وإلى قتل بعضهم! فيقول الله: أفهذا فعلكم برسلي؟!

وكذا قوله سبحانه ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١).

وقد ذكر أهل التفسير والسير: أنهم قتلوا يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، واختلفوا في قتلهم لأبيه زكريا عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير: «وذكروا في قتله أسباباً كثيرةً، من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من

١- المسند (١/ ٦٧).

لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فبقي في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها، استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها... وروى عن سعيد بن المسيب بسند صحيح قال: قدم بختنصر دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً، فسكن. [1]

قال: وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه: هل مات زكريا عليه السلام موتاً، أو قتل قتلاً؟ على روايتين» [2] فسبحان الله العزيز ذي انتقام.

ولم يكتف اليهود بتلك العظائم والجرائم مع أنبياء الله، بل حاولوا قتل خاتم الأنبياء والمرسلين، أكثر من مرة، وظاهروا على قتله وقتاله وقتال أصحابه، الكفار وعبدة الأوثان.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ (المائدة: ١١).

قال ابن كثير: «وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تعاهدوا عليه،

١- البداية والنهاية (٢/٤١١)

٢- البداية والنهاية (٢/٤١١).

فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية [1].

وليست هذه هي الحادثة الوحيدة التي حاول فيها اليهود قتل النبي ﷺ، فاليهود حاولوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرة، ولكن الله تعالى نجاه من شرهم ومكرهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٢- ٣٣).

ومع هذا فقد ظل أثر السم فيه ﷺ حتى توفاه الله عز وجل بعد ثلاث سنين، كما روى البخاري في المغازي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ «يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة، ما أَزالُ أجدُ ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم» [2].

والأبهر: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

فإذا كانت هذه الخصلة مذكورة عنهم في كتاب الله تعالى مراراً، فلا يستغرب اجتراؤهم على الأنفس البريئة المعصومة، من الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم. والله من ورائهم محيط.

١- حسن التحرير (٣٤/٢)، وورد أنها نزلت في الأعرابي الذي أخذ سيف النبي ﷺ فسله عليه... الحديث، ولا مانع من تعدد الحوادث والآية واحدة، كما في علوم القرآن.

٢- الفتح (١٣١/٨)

٩- التطاول والاعتداء باللسان على الأنبياء والمرسلين

فالذين فعلوا ما سبق من الأفاعيل، لا يستنكر عليهم مثل هذه الخصلة القبيحة، حيث لا يتورعون عن سب أنبياء الله ورسله، والكذب عليهم، ودس القصص الخبيثة عن الرسل وأهليهم، حتى في كتبهم المقدسة؟!!

فمن ذلك: تقولهم على نبي الله عيسى وأمه مريم عليهما السلام، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٦، ١٥٧).

قال ابن عباس والجمهور في قوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾: يعني أنهم رموها بالزنا!

قال ابن كثير رحمه الله: [1] «وهو ظاهر من الآية، أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك! زاد بعضهم وهي حائض! فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه! وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء؟! كقول المشركين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

ومن ذلك: أنهم كانوا يخاطبون الرسول محمد ﷺ بما لا يليق ولا يجوز

١- حسن التحرير (١/٤١٠).

من الألفاظ، واتخذوا من سلاح المراوغة والمخادعة وليّ اللسان بالقول، سبيلاً لإيذاء النبي ﷺ فكانوا يلوون ألسنتهم بالكلام السيئ، كما حكى القرآن الكريم عنهم ذلك، ونهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول ﷺ بمثل ألفاظهم، قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٠٤).

فقولهم ﴿رَٰعِنَا﴾ يوهمون السامع أنهم يقصدون المراعاة والإمهال، أو تدبير المصالح، وهم يريدون في الحقيقة الرعونة! وهي الحمق والخفة! عاملهم الله بما يستحقون، فنهى الله تعالى المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبي ﷺ والتنقيص من شأنه».

قال الحافظ ابن كثير: «نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص – عليهم لعائن الله – فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون: راعنا، ويورون بالرعونة» [1].

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ٤٦).

١- حسن التحرير (٩٦/١).

فحالهم في العلم، ما ذكر من تحريف الكتاب.

وأما حالهم في العمل والانقياد، فإنهم يقولون ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك! وهذا غاية في الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد.

وكذلك يخاطبون الرسول عليه الصلاة والسلام بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل ما تكره [1]

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى ما يقولون بدل هذه الكلمة، فقال تعالى ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ أي: لا تقولوا هذه الكلمة وهي ﴿رَاعِنَا﴾ لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ وقولوا مكانها ﴿انظُرْنَا﴾ أي: انتظرنا وتأنَّ بنا، من نظر بمعنى انتظر، كقوله تعالى ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

فالآية الكريمة تُنبِّه إلى استعمال الأدب الجميل مع رسول الله ﷺ، وتجنب ما يوهم التنقص، وألفاظ الجفاء.

ثم بين تعالى مصير اليهود، جزاء تعديهم على رسول الله ﷺ فقال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاء أليم جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

ومن سوء أدبهم مع نبينا ﷺ: ما روى البخاري ومسلم وغيرهما: من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك! فقال رسول الله ﷺ : «وعليك» فقال رسول الله ﷺ: «تدرون ما يقول؟» قال: «السام عليك» قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا». قال: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم».

١- انظر تفسير السعدي.

روى الترمذي في سننه[1] والنسائي: عن عائشة رضي الله عنها قالت كان على رسول الله ﷺ ثوبان قطريان غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثقلا عليه، فقدم بزٌ من الشام لفلان اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه فقال - أي اليهودي -: قد علمت ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي! فقال رسول الله ﷺ: «كذب، قد علم أني من أتقاهم لله، وآداهم للأمانة».

ومن ذلك: أنهم طلبوا من الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرؤونه.

قال الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٣).

قال ابن جريج: وذلك أن اليهود والنصارى أتوا النبي ﷺ فقالوا: لن نتابعك على ما تدعونا إليه، حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله، وإلى فلان أنك رسول الله! قال الله جل ثناؤه ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾.[2]

ثم قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، آية معجزة جميع الخلق أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، آمرة لهم بإتباعه.

وجائز أن يكون الذي سألوه من ذلك، كتاباً مكتوباً ينزل عليهم من السماء إلى جماعتهم».

١- (١٢٣٦).

٢- رواه ابن جرير (٧/ ٦٤٠).

١٠- قتلهم خيرة الناس من العلماء والدعاة إلى الحق

قال الله تبارك وتعالى عن هذه الخصلة الإجرامية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ﴾ (آل عمران: ٢١-٢٣).

هؤلاء هم أشد الناس جرماً، وأي جرم وذنب أعظم من الكفر بالله تعالى وآياته القاطعة، الواضحة البينة، ثم قتل أنبيائه الكرام، الذين حقهم أعظم الحقوق على العباد بعد حق الله سبحانه، وقد أوجب عليهم طاعتهم، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون بالقسط، أي: بالعدل، فينصحون ويرشدون، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهذا العمل من أعظم الإحسان للخلق، وهي وظيفة الأنبياء والرسل وأتباعهم.

فقابلوا هذا الإحسان شر مقابلة، فاستحقوا العذاب الأليم من رب العالمين بما كسبت أيديهم.

وبين الحافظ ابن كثير رحمه الله أن استكبارهم وعنادهم للحق، هو الدافع لهم لقتل الدعاة إلى الحق من النبيين وأتباعهم، فقال في الآية: «هذا من ذم الله تعالى لأهل الكتاب، بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله، قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم، وعناداً لهم وتعاظماً على الحق، واستنكافاً عن إتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا

من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الكِبْر بطر الحق، وغَمط الناس»، ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أي: موجع مهين»[1].

لكن الحق جل جلاله، ناصر دينه وكتابه ورسله وعباده الموحدين، كما قال سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (غافر: ٥١ – ٥٢).

وقال سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣).

ونور الله: هو دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه نوراً لأنه يستضاء به في ظلمات الجهل والشرك والشك والشبهات، والأديان الباطلة.

ونحن نؤمن أن الله تعالى سيصدق في وعده – ولو اجتمع من بأقطارها على إطفاء نوره– كما صدق سبحانه في كل ما قال عنهم من صفاتهم في كتابه.

ولن يستطيع اليهود وأعوانهم من ملاحدة الغرب والشرق أن يوقفوا انتشار الإسلام، ولو كادوا للدعوة الإسلامية ودعاة الإسلام، وأبناء المسلمين، بشتى طرقهم وأساليبهم الماكرة الخبيثة، من التخويف أو السجن أو القتل، واتهام دعاة الحق بالإرهاب والتطرف! أو بالمادية والإغراء بالشهوات والملذات والمنكرات.

١- حسن التحرير (١/ ٢٥١).

١١- كثرة دعاويهم الباطلة وكذبهم على الله تعالى وترويجهم له الإشاعات

فهم من أكثر الناس كذباً على الله تعالى، ورسله وأنبيائه، وكتبه ودينه وشريعته، أصحاب دعاوى عريضة، وأقوال ملفقة، لا أصل لها ولا دليل، بل مجرد الهوى والتشهي والغرور، ومعلوم أن القول على الله بغير علم من أعظم المحرمات، كما قال سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وقد حكى الله تعالى كثيراً من هذه الدعاوى الزائفة، ورد عليها بالدليل.

فمن ذلك: قولهم ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة: ٨٠).

وهذا محض افتراء وكذب، لا دليل ولا برهان عليه، وتزكية لأنفسهم، وشهادة لها بالنجاة.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «يقول الله تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ أي: بذلك؟! فإن كان قد وقع عهد، فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان! ولهذا أتى بـ ﴿ أَمْ ﴾ التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه» [١].

١- حسن التحرير (٧٩/١).

روى مجاهد عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٠-٨١).

وقال قتادة: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ «يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل».

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم؟ » قالوا: فلان، قال: «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟». فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها! فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً»[1].

ومن دعاويهم وافتراءاتهم : قولهم ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١١١).

فحكموا لأنفسهم وحدهم بالجنة دون غيرهم من خلق الله، بمجرد

١- رواه الإمام أحمد (٤٥١/٢) والبخاري في الجزية (٣١٦٩) وفي الطب (٥٧٧٧) والنسائي بنحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأماني والغرور، وبلا حجة ولا برهان على صحة هذه الدعوى الباطلة! العارية عن الدليل الصحيح من الشرع أو العقل، بل هي من خدع الشيطان لهم وأباطيله.

ولهذا قال تعالى ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وغيرهم. ثم أخبر سبحانه عن واسع رحمته، وعموم فضله، فقال ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: بل الصحيح أن كل من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، وهو محسن فيه، أي: متبع للرسول ﷺ، وهما شرطا قبول العمل، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: قد ضمن الله سبحانه له أجره وثوابه، وأمَّنه المحذور من عذابه وعقابه.

وما دام أنهم لم يسلموا ولم يتبعوا الرسول ﷺ، فليسوا من أهل الجنة، هذا ما تفيده الآية الكريمة.

ونحوها قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: ١٨).

هذه أيضاً من مقالاتهم الباطلة، فهم يرون أنفسهم أبناء الله وأحبابه، وشعب الله المختار، ولن يعاقبهم الله إلا بقدر ما يعاقب الوالد الرحيم أولاده المدللين! يقسو عليهم ثم يرحمهم ويتغاضى عن سيئاتهم!

فرد الله عليهم دعواهم بقوله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: لو كنتم أحبابه ما عذبكم بذنوبكم! لأن الله

لا يعذب أحبابه وأوليائه؟ بل تجري عليكم أحكامه الحكيمة العادلة، فمن أتى بأسباب المغفرة غَفَر له، ومن أتى بأسباب العذاب عذَّبه.

ومثلها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٩٤ – ٩٥).

فإنهم لما ادعوا أن الجنة خالصة وصافية لهم، ومختصة بهم، ليس لأحد حق فيها، تحداهم الله ورسوله ﷺ أن يتمنوا الموت! فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، اشتاق إليها، وأحب أن يتعجل الوصول لها، ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا كما أخبر الله تعالى عنهم.

ومن افتراءاتهم التي سجلها القرآن: دعواهم إن الهُدى والهداية إنما تكون بإتباع ملتهم، فمن لم يكن يهودياً فليس بمهتد!

قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ﴾ (البقرة: ١٣٥).

جاء عن ابن عباس قال: قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتدِ! وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [1].

فمعنى الآية: أنهم قالوا للنبي ﷺ وللمسلمين اتبعوا طريقنا تهتدوا وتوافقوا الحق! فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ليس الهدى في إتباع ملتكم، بل الحق في إتباع ملة

١- ابن كثير (١/١٢١).

إبراهيم عليه السلام، وهي الحنيفية المائلة عن الشرك، فاتبعوها أنتم كما اتبعناها نحن، لتهتدوا حقاً، لأن ملتكم قد دخلها الشرك والكفر والتحريف.

ثم قال لهم ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ ﴾ (البقرة: ١٣٦:١٣٧).

وهذه دعوة لهم إلى الهداية الحقيقية، التي هي الإيمان بالله تعالى وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله على محمد ﷺ وهو خاتم النبيين، وعدم التفريق بين الأنبياء، بالإيمان ببعضهم والكفر بالبعض الآخر!

فإذا فعلوا ذلك فقد أسلموا، وأصابوا الهداية التي يريدها الله منهم، وإن أعرضوا فهم ضالون معاندون مستكبرون.

ومن مزاعم اليهود الفاسدة: ادعاؤهم أن ذنوبهم مغفورة مهما فعلوا! ومهما ارتكبوا من موبقات، وانتهكوا من حرمات، وأكلوا من أموال محرمات!

وقد حكى القرآن الكريم قولهم الباطل هذا ورد عليه، قال سبحانه ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

يقول تعالى: فخلف بعد أولئك الذين قطعناهم في الأرض خلف سوء، ورثوا التوراة فقرؤوها وتعلموها وعرفوا ما فيها من حلال وحرام، ولكنهم لم يعملوا بأحكامها، بل استحلوا المحارم، وتهافتوا على حطام الدنيا، وأكلوا

الأموال المحرمة بشراهة، من ربا ورشاوى، وقالوا: إنه سيغفر الله تعالى لنا ذنوبنا! ولا يؤاخذنا لأننا من نسل أنبيائه، فنحن شعبه المختار!

ثم أخبر الله تعالى عن إصرارهم على ذنوبهم، وعدم توبتهم، فقال ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ أي: هم مستمرون على ذلك.

فأنكر الله عليهم بقوله ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ أي: قد أخذ الله تعالى عليهم في التوراة، ألا يقولوا على الله إلا الحق والصدق، وألا يخالفوا أمره، ولا يتجاوزوا حدوده، ولا ينقضوا عهده، لكنهم لم يعملوا بذلك، بل ضيعوه، واشتروا به ثمنا قليلاً، فبئس ما يشترون.

ومن مزاعم اليهود الفاسدة: قولهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾! أي: كل من كان من غير اليهود، فإنه مهدر الحقوق! فلا حرمة لماله، ولا عتب ولا ملامة في أكل حقه وسلبه!

وقد حكى الله تعالى عنهم هذه المقالة الباطلة، في قوله ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٥).

أي: من اليهود فريقاً إن تأتمنه على الأموال الكثيرة، يؤدها إليك عند طلبها منه كاملة غير منقوصة، ومنهم من إن تأمنه على القليل منها يأكلها، ولو كانت ديناراً، ويجحدها مستحلاً لها.

والسبب في ذلك: ادعاؤهم وافتراؤهم أنه ليس عليهم في الأميين – من العرب وغيرهم – سبيل، أي: ليس علينا إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، وهذا يدل على أنهم رأوا أنفسهم في غاية العظمة، واحتقروا غيرهم غاية الاحتقار! فلم يجعلوا لغيرهم من الأمم أي حرمة؟!

وكان هذا كذباً على الله تعالى واختلاقاً، وافتراءً على دينه وشرعه وكتابه، كما قال سبحانه ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فجمعوا بين أكل الحرام، واعتقاد حلّه، وما زعموه لا يؤيده شرع قويم، ولا عقل مستقيم!

ثم رد الله عليهم هذا الزعم الفاسد بقوله ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون! بل عليهم الإثم والوزر، والله عز وجل حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، ويحب من يوفي بجميع الحقوق، سواء كانت لله تعالى أم لعباده، وهو يحب المتقين من خلقه، من أي جنسٍ وعِرْق ولون، وسواء كانوا منكم أو من الأميين.

وهذا الأمر جعلهم يحرفون التوراة لتوافق ما تهوى أنفسهم الأنانية، ففي التوراة تحريم الربا مطلقاً وتقول: «لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته» فحرف اليهود هذا النص فزادوا كلمة: الإسرائيلي! فأصبح النص هكذا: «لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته »! وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند تعاملهم مع بعضهم، ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم؟!

ولهذا تجد في الواقع المعاصر، أن أكثر البنوك العالمية الربوية اليوم أصحابها من اليهود! الذين لا يبالون بالناس، ولا بما يصيبهم جراء الربا.

وقد بين النبي ﷺ أن الأمانة يجب أن تؤدى للبر والفاجر، فقال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك »[1]

أي: لا تقابل خيانته بالخيانة، فتكون مثله.

١- رواه أبو داود (٣٥٣٤ ، ٣٥٣٥) والترمذي (١٢٨٧) وغيرهما.

١٢- جدالهم الشديد وكثرة سؤالهم وتنطعهم في الدين

فمن طبع اليهود الإكثار من الجدل والمماراة والمخاصمة، وعدم قبول الحق ابتداء، مع بل بعد لجاج ومحاججة وتشكيك، ولو كان ذلك مع الله تعالى وأنبيائه ورسله، كثرة الأسئلة والتضييق على النفس.

فمن أمثلة ذلك: قصة أمرهم بذبح البقرة، وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة، في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (البقرة: ٦٧ – ٧١).

فقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن يأمر قومه بذبح بقرة لما اختلفوا فيمن قتل القتيل ليضربوه ببعض أعضائها، لكنهم لم يستجيبوا بل قالوا له: أتتخذنا هزواً؟! وهذا يدل على سفههم، وسوء ظنهم بربهم عز وجل، وبرسولهم الكريم.

ثم ظلوا يسألون نبيهم ويكررون السؤال، ويضيقون على أنفسهم ويتعنتون،

فضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرةٍ لكفتهم، كما قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وغيرهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، وظلوا يسألون عنها وعن أوصافها ولونها، حتى قالوا بعد كثرة سؤال ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾! وهذا من جهلهم وكفرهم، فقد أتاهم بالحق من أول ما أمرهم بالأمر.

قال تعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: كادوا ألا يفعلوا ما أمروا به، وفي هذا ذمٌ لهم وتوبيخ، على تباطئهم عن امتثال الأمر من أول مرة.

ومن ذلك: جدالهم في إبراهيم عليه السلام وملته، وهي في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران:٦٥).

فأنكر الله تعالى عليهم محاجتهم في إبراهيم عليه السلام، وأنه كان يهودياً! مع أن زمنه كان قبل موسى عليه السلام وقبل أن ينزل الله التوراة! وكذلك قبل أن ينزل الله الإنجيل، فلا يمكن أن يكون نصرانياً كذلك. فهذه المحاجة ظاهرة البطلان، لأنهم يجادلون فيما ليس لهم به علم.

ولهذا قال تعالى راداً عليهم، ومنكراً قولهم ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٦٦) فأمرهم برد ما لا علم لهم به، إلى عالم الغيب والشهادة.

وبين لهم أن أولى الناس به، هم أتباعه، ثم النبي محمد عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا من أصحابه من المهاجرين والأنصار، قال سبحانه ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٨).

ومن ذلك: جدالهم في نبوة عيسى عليه السلام وجحدهم لها، فهم لا يعترفون بنبوته ورسالته! ولا يسلمون بذلك! بل يرون أنه قد جاء عن طريق الزنا والعياذ بالله تعالى، ويتهمون أمه بذلك، كما سبق ذكره في فظائعهم وأقوالهم المنكرة على الرسل.

وأما الإسلام فيعترف لعيسى عليه السلام بالنبوة، وأنه من المرسلين، قال تعالى آمرا لهم بالإيمان بالجميع ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٦ - ١٣٧).

وقال عز وجل في خلق عيسى عليه السلام ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

أما هم فقد أبوا ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٥٩).

ومن ذلك جدالهم في قضية النسخ: وقد اشتد جدلهم في هذه القضية، وأثاروا حولها الشغب والفتن، قاصدين الطعن في الإسلام، وبث الشكوك والارتياب في نفوس أتباعه.

ومن الآيات في هذا الأمر قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦).

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله تعالى آية بآية، أو حكماً بحكم آخر، فالنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، استقبل بيت المقدس تأليفاً لقلوب اليهود، لأن بيت المقدس قبلتهم، وفرحوا بذلك، ولكنهم لما عموا وصموا، وعاندوا وأبوا الدخول في الإسلام، وزعموا أن الرسول ﷺ قد اتبع قبلتهم، وعما قريب سيتبع ملتهم! فتأثر النبي ﷺ وابتهل إلى الله أن يحول قبلته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فاستجاب الله لنبيه فولاه القبلة التي يرضاها، وهي البيت الحرام، ففرح النبي ﷺ والمؤمنون بذلك.

أما اليهود ومن كان على شاكلتهم ممن في قلبه مرض، فقد استقبلوا ذلك بالاستهزاء والجحود، وإثارة الشبه والتشكيك للمسلمين، فقالوا: إن كانت القبلة الأولى هي الحق، فقد تركتم الحق أيها المسلمون! وإن كانت القبلة السابقة باطلة، فقد كانت عبادتكم باطلة! فقال سبحانه راداً عليهم قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ ﴾(البقرة:١٤٢).

ثم بين الله تعالى الحكمة من تحويل القبلة، فقال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ (البقرة ١٤٣) أي: ما فعلنا ذلك إلا اختباراً وامتحاناً للناس، لنعلم الصادق في اتباعه من المتذبذب في إيمانه ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (الأنفال ٣٧).

ثم قال تعالى ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾(البقرة ١٤٨) أي: لكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها في عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم.

ومن جدالهم: جدالهم فيما حرم عليهم من الأطعمة، وإنكارهم لذلك، فقال الله تعالى ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:٩٣).

أي: إن إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام كان قد حرم أشياء على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، مثل لحوم الإبل وألبانها، ثم إن التوراة نزلت بتحريم أشياء على بني إسرائيل كانت حلالاً لهم، بسبب ظلمهم وعدوانهم، عقوبة لهم، كما قال تعالى ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ١٦٠).

وقال سبحانه أيضاً ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ﴾ ثم قال ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (الأنعام : ١٤٦).

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ إن أنكر اليهود ذلك وعاندوا، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم بعض الطيبات عليهم، أن يأتوا بالتوراة فيقرؤها ليروا ذلك بأعينهم، وتقوم به عليهم حجة الله عز وجل.

فلهذا قال ههنا ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (ال عمران ٩٤).

وهذا من أعظم الدلائل على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ بما أقام عليهم من الأدلة من كتابهم نفسه، وإخبارهم عما فيه.

ولذلك أتبعه بقوله ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ﴾ أي: فيما أخبر وحكم ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ

﴿إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران ٩٥) وهذا دليل على أن اليهود لم يكونوا على ملة إبراهيم عليه السلام.

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران ٩٦)

وهذا رد على زعمهم وجدالهم أن بيت المقدس أفضل من الكعبة المشرفة، والبيت الحرام الذي بمكة، بأنه أول مسجد وضع في الأرض، فهو أسبق بناء من بيت المقدس، وأجمع منه للديانات السماوية.

ومن ذلك: كثرة أسئلتهم وجدالهم لنبينا محمد ﷺ وتعنتهم في ذلك، بقصد إحراجه.

١- فمن ذلك: ما جاء في الصحيحين: [١] عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب - أي جريدة نخل - إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح. فقال ما رابكم إليه؟ أي ما دعاكم إلى سؤال تخشون سوء عقباه - وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

٢- وفي صحيح مسلم [٢] عن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: «كنت قائماً عند رسول

١- رواه البخاري في التفسير (٨/٤٠١) ومسلم في صفات المنافقين (٤/٢١٥٢).

٢- كتاب الحيض (٣١٥) .

الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟!» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر – أي على الصراط». فقال اليهودي: فمن أول الناس إجازة – أي عبوراً- على الصراط؟ قال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم – أي هديتهم – حين يدخلون الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «زيادة كبد الحوت»، فقال اليهودي فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكلُ من أطرافها»، فقال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عينٍ تُسمى سلسبيلا» فقال اليهودي: صدقت.

قال: وجئت أسألك عن شيءٍ لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبيٌّ أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك» فقال اليهودي: أسمع بأذني، ثم قال: جئت أسألك عن الولد؟ فقال النبي ﷺ: «ماءُ الرجلِ أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله – أي كان الولد ذكراً – وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله – أي كان الولد أنثى» فقال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب».

فظاهر الحديث أن هذا اليهودي وهو صاحب علم بالتوراة كما يظهر من أسئلته، لم يُسْلَم ولم يستفد من أسئلته شيئاً، بل لعله سأل وأكثر من السؤال والاستفصال من أجل زلزلة الإيمان في قلوب المسلمين، أو إظهار عجز النبي ﷺ عن الجواب، أو لبثِّ الشكوك والشبهات حول دعوته ودينه، والله تعالى أعلم.

١٣- نبذهم لكتاب الله تعالى واتباعهم للسحر والشياطين

وهذه من صفاتهم التي ذكرها الله سبحانه عنهم في كتابه الكريم، وهي من استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، وهي من صفاتهم المشهورة، ولا يقع فيها إلا أصحاب القلوب المريضة، والنفوس الخبيثة، والعقول الطائشة، فيبيع الغالي النفيس، بالتافه الرخيص، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

أي: حين جاء اليهود وأحبارهم رسول الله محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه وصفته، نبذوا ذلك وطرحوه وأعرضوا عنه كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على السحر وتعلمه وإتباعه، وما تختلقه الشياطين وتكذبه على نبي الله سليمان عليه السلام، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعمت زوراً وإفكا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم! وهم كذبة في ذلك، فلم يكن يستعمله أبداً، وقد نزهه المولى سبحانه فقال تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ

سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ ﴾ أي: يغونهم به ويضلونهم.

وكذلك اتبع اليهود وعلمائهم ما أنزل على الملكين هاروت وماروت، ببابل من أرض العراق، وكان قد أُنزل عليهما السحر امتحاناً للناس، واختباراً من الله لعباده، قال تعالى ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾ أي: ما يضرهم في دينهم ودنياهم، ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي: ماله في الآخرة من نصيب، لاستبدالهم بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ، وهم يعلمون ذلك وقوله تعالى ﴿ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي: ولبئس البديل الذي ارتضوه لأنفسهم، لو أنهم عقلوا تصرفاتهم.

ثم قال تعالى ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٣) أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله ﷺ، واتقوا محارم الله تعالى، لكان خيراً لهم وآجر.

١٤- لَبْسُ الحَقِّ بالباطل

قال تعالى عن هذه الخصلة: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٤٢).

والآية وردت عطفاً على تذكيرهم بنعم الله عليهم في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠).

ثم جاء التحذير من الضلال، في قوله تعالى﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٤١). ثم التحذير من الإضلال، في قوله تعالى﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ﴾ واللَّبس في اللغة: بفتح اللام: هو الخلط، وهو من الفعل (لَبَسَ) بفتح الباء، يقال: لَبَست عليه الأمر ألبسه: إذا خلطت حقه بباطله، وواضحه بمشكله، ومنه قوله تعالى﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩). ويقال: في الأمر لُبسة، بضم اللام، أي: اشتباه واللِّبس: بكسر اللام، من الفعل (لَبِسَ) بكسر الباء: هو لبس الثوب ونحوه.

والحق: هو الأمر الثابت؛ من حَقَّ الشيء، إذا ثبت ووجب، وهو ما تعترف به سائر النفوس، بقطع النظر عن شهواتها.

والباطل: ضد الحق، وهو الأمر المضمحل الزائل الضائع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: قوله ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ﴾.

أي: لا تخلطوا الحق بالباطل، ولا تخلطوا الصدق بالكذب. وعن أبي العالية قال: لا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ.

وقال قتادة: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية، وأنتم تعلمون دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من دين الله.

وروي عن الحسن البصري نحو ذلك.

فمعنى الآية: ولا تخلطوا أيها الأحبار على الناس في أمر محمد ﷺ، وما جاء به من عند ربه من القرآن العظيم، وتزعموا أنه مبعوث إلى العرب دون بقية الأمم، وقد علمتم أنه مبعوث إلى الناس كافة، بما فيهم أنتم، أو تنافقوا في أمره، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب، والحق بالباطل، وتكتموا ما تجدونه في كتابكم من نعته وصفته، وتعرفون أن من عهدي الذي أخذت عليكم في كتابكم الإيمان به، وبما جاء به والتصديق بذلك.

فالمراد إذًا: النهي عن كتم حجج الله، التي أوجب عليهم تبليغها، وأَخَذَ عليهم بيانها.

وقوله تعالى: : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، وفيها دليل على أن كفرهم كان كفر عناد، لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب، وأوجب للعقوبة؛ ثم إن التقييد بالعلم في الآية، لا يفيد جواز اللَّبْس والكتمان مع الجهل؛ لأن الجاهل مطالب بالتعلم، ومنهي عن البقاء على جهله، وأن لا يُقْدِم على شيء حتى يعلم حكمه.

وعلى هذا، فلَبْسُ الحق بالباطل ترويج للباطل، وإظهار له في صورة

الحق! وهذا اللَّبْس والتلبيس هو أول التضليل، وإليه المنتهى في الإضلال؛ فإن أكثر أنواع الضلال الذي أدخل في الإسلام من قبل أهل الأهواء والبدع، هو من قبيل لبس الحق بالباطل، وتاريخ الإسلام خير شاهد على ذلك.

فيجب على المسلم أن يتفادى ما وقع فيه اليهود من الخلط واللبس للدين، والكتمان للحق المبين.

يقول الإمام ابن القيم «فإن اللبس إنما يقع إذا ضَعُفَ العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية». وهذا من كمال علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ، فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل، فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين! كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة، في باب الاعتقاد والعلم والعمل، هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم، في سبيل المؤمنين! ودعا إليها وكفر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله! [1].

ومن لبس الحق بالباطل: أنواع التأويل الباطل لنصوص الوحيين، فقد قال أهل السنة والجماعة: إن التأويل - الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره - لآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ لا يصح ولا يجوز، إلا إذا دلَّ عليه دليل قوي، من قرآن أو سنة صحيحة، أو لغة معروفة، أو عرف جار ونحوها.

١- الفوائد (ص ١٠٩).

أما إذا وقع التأويل لما يُظن أو يُتوهم أنه دليل، فهو تأويل باطل، لا يُعرَّج إليه، ولا يصح التعويل عليه ؛ إذ هو في حقيقته نوع من التحريف المحرم والتضليل. أما إذا وقع التأويل من غير دليل أصلاً فهو آكد في الحرمة، وأوجب للمنع، إذ هو نوع من أنواع التلاعب بالكلام، والتكذيب والهزأ بآيات القرآن، ولا يخفى ما فيه من الضلال.

فمن أمثلة التأويل بغير دليل: تأويل أهل البدع صفة الرحمة لله تعالى بالإحسان والإنعام! ورضاه تعالى بالثواب! واستواؤه على عرشه بالاستيلاء والقهر! ويده سبحانه بنعمته! ووجهه بذاته! وهكذا تأويلات لهم باطلة، تخالف ظواهر الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وما كان عليه سلف الأمة المباركين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، إذ لم ينقل عنهم حرف من ذلك.

وقد تقدم الكلام على هذا، عند ذكر تحريفهم لكلام الله تعالى وكتبه، وكلام رسله صلوات الله عليهم، إما لفظاً وإما معنى في صفة التحريف.

والأمر المهم الذي ينبغي التنبيه عليه هاهنا: أن الخطاب القرآني وإن كان متوجهًا في لفظه ونصه إلى بني إسرائيل، إلا أنه في فحواه ومقصده خطاب عام يشمل الناس كافة، والمؤمنين منهم على وجه أخص، فهم أولى بالنهي عن خلط الحق بالباطل، وهم أجدر بإظهار الحق وعدم كتمانه، والله أعلم.

ومن صور اللبس والتضليل التي تقع في هذه الأمة، ونذكرها لنحذر من الوقوع فيها بأنفسنا، ونحذر إخواننا المسلمين من الوقوع فيها، والانخداع بها:

أ- ترك التحذير من البدع المحدثة، والشركيات بأنواعها، بدعوى الحفاظ

على وحدة الأمة الإسلامية، وعدم تفريقها؟!

ب - المداهنة والسكوت عن المنكرات، وضعف الولاء والبراء، بحجة المداراة والتسامح ومصلحة الأمة!

ج - الانفتاح على الدنيا والركون إليها، بحجة التعفف عن الناس، أو إنفاق المال في وجوه الخير!

د - الاحتجاج بيسر الشريعة ثم ضغوط الواقع، للتفلت من أحكام الشريعة والتحايل عليها، وإتباع الهوى في الأخذ بالرخص والشذوذات الفقهية، وكل هذا باطل وتلبيس وتضليل، يتبناه أهل الأهواء الذين يتبعون الشهوات، ويريدون بذلك تحلل المجتمع المسلم من أحكام الشريعة باسم التيسير وترك التشديد.

هـ - التشهير بالدعاة والمصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة، والتحذير من الأخطاء.!!

و - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدعوى خوف الابتلاء وتعريض النفس للفتن.

ز - التلبيس على الناس برفع لافتات إسلامية، تخفي وراءها الكيد للدين وأهله، من قبل أعداء الأمة من المنافقين والكفار.

وغيرها من أنواع التلبيسات التي تقع من قِبل من أعرض عن التمسك بالوحيين، وإتباع السلف الصالح لهذه الأمة، عقيدة وشريعة ومنهاجاً.

١٥- قسوة قلوبهم

وقد ذكر الله تعالى عنهم هذه الخصلة الذميمة في كتابه، فقال ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤) . أي: اشتدت وغلظت.

قال ابن جرير: «فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة».

يعني: لا تخرج عن أحد هذين المثلين.

وقال ابن كثير: «فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية، بعيدة عن الموعظة، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة، كما قال الله تعالى بعدها ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

فمن الحجارة ما يتفجر منها العيون الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منها الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، إذ فيه إدراكاً لخشية الله بحسبه، كما قال سبحانه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (المائدة: ١٣).

أي: بسبب نقضهم للعهود مع الله تعالى ومع خلقه، جعل قلوبهم قاسية لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا ترغبهم الرغائب، ولا تخوفهم المخوفات، وهذا - كما قال أهل العلم - من أعظم العقوبات على

العبد، لأن الهداية والاستقامة أعظم النعم.

وقال سبحانه فيهم ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:٧١).

أي: عميت قلوبهم عن الحق لقسوتها، وبعدها عما أنزل الله تعالى، والوفاء بالميثاق الذي أخذ عليهم، بما قدمت أيديهم من تكذيب الرسل وقتلهم، كما في الآية قبلها ﴿ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴾ (المائدة:٧٠).

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين ١٤).[1]

قال المباركفوري: «نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ» أَي: جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، أَي: أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ شَبَهُ الْوَسَخِ فِي الْمِرْآةِ. وقوله «سُقِلَ قَلْبُهُ» نَظَّفَ وَصَفى مِرْآةَ قَلْبِهِ، لأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ، تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ «وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا» أَي: تُطْفِئَ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِيَ بَصِيرَتَهُ.

والآيَةُ السابقة وإن كانت فِي حَقِّ الْكُفَّار، لَكِنْ ذَكَرَهَا ﷺ تَخْوِيفًا لِلْمُؤْمِنِينَ، كَي يَحْتَرِزُوا عَنْ كَثْرَةِ الذَّنْبِ فتَسْوَدَّ قُلُوبُهُم، كَمَا اسْوَدَّتْ قُلُوبُ الْكُفَّار وَلِذَا قال السلف: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْر، أي: تقود إليه» [2].

١- رواه الترمذي (٣٥٦٩).

٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي.

١٦- كفرهم بنعم الله تعالى

وهذه خصلة ظاهرة فيهم، ومن يقرأ القرآن الكريم يرى بوضوح الآيات التي تتحدث باستفاضة عن ألوان النعم التي أغدقها الله تعالى عليهم، ثم جحودهم لها، وإعراضهم عن شكرها، ووقوعهم في المعاصي.

وسنبدأ بآيات سورة البقرة، فقد شرع الله تعالى بتعداد النعم عليهم بموضع واحد، فقال تعالى:

أ - ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠). فيأمرهم تعالى بالانتباه لنعم الله عليهم، وذكرها بقلوبهم وألسنتهم، فإنَّ ذكرها والتحدث بها يحث على شكرها، والقيام بحقوقها، كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ (الضحى:١١). والمراد بالنعمة في الآية جنس النعم، كما قال تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (النحل : ١٨) أي: النعم المتعددة عليكم.

ب - **نعمة التفضيل على الناس:** في قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: : ٤٧) أعاد الله تعالى نداءهم، تذكيراً وتأكيداً لواجب الشكر عليهم. وقوله تعالى ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ عطف على النعم السابقة، وتذكير بنعمة خاصة عظيمة، وهي نعمة التفضيل على العالمين، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الدخان: ٣٢)، أي: عالمي زمانهم، فإن أمة محمد ﷺ لم تكن

موجودة حينئذ. فيذكرهم سبحانه بما حباهم به من نعمة، من أنه سبحانه بعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء، كما قال النبي ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي» [1] والسياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه، فكان يتولى أمورهم الأنبياء، كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية اليوم، فيا لها من نعمة كبرى، ومنة عظمى، فهل شكروا تلك النعمة حق شكرها؟!

ج – نعمة إنجائهم من عدوهم:

ذكرهم الله بها في آيات من كتابه، قال تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٤٩). وتكرر التذكير في سورة الأعراف وإبراهيم وطه وغيرها. وهذه الآية من سورة البقرة، معطوفة على قوله ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾.

والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون، الذين كانوا يعذبونكم أشد العذاب، يذبحون الذكور منكم، ويبقون الإناث، ويذلونكم ويكلفونكم ما لا تطيقون من الأعمال، وفي النجاة من ذلك العذاب، والخلاص من ذلك العدو الكافر، ومن الإذلال والتسلط، نعمة عظيمة.

قال العلماء: وفي ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

١- ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل.

١- رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعاش، لحاجتها للرجل.

٣- أن قتل الولد بعد الحمل الطويل والتعب، من أعظم العذاب والنكد.

٤- أن بقاء النساء دون الذكور تعريض لهن للفاحشة من قبل الأعداء، وهو غاية الذل والهوان.

د - نعمة فرق البحر وإغراق عدوهم :

في قوله ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة: ٥٠).

والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل من جملة نعمنا عليكم، نعمة فرق البحر بكم، وهي آية عظيمة ومعجزة باهرة، حين ضربه موسى عليه السلام بعصاه، فأصبح فيه طرقاً يابسة متعددة لكم، فسلكتموها وسرتم فيها هاربين من فرعون وجنده، وتمت لكم النجاة، وحصل الغرق والهلاك لعدوكم، فرعون وقومه وجنده، ورائكم وأنتم ترون ذلك بأم أعينكم، وهو أبلغ في اليقين، وأقر لأعينكم، وألذ لقلوبكم برؤية هلاك عدوكم، وأرجى لشكر النعمة عليكم.

هـ - نعمة إنزال الكتاب والنبوة:

في آيات، منها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٥٣). وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

فامتن الله عز وجل عليهم بإنزال التوراة، الفارقة بين الحق والباطل،

والهدى والضلال، وأنها الضياء الذي يهتدي به المهتدون، وتعرف بها أحكام الدين، ويميز بها بين الحلال من الحرام.

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الجاثية: ١٦).

أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل بنعم لم تحصل لأحد غيرهم من أهل زمانهم، فآتيناهم الكتاب: أي التوراة والإنجيل، والحكم بين الناس، والنبوات المتصلة فيهم، والتي امتازوا بها بين الخلق، حتى صارت بعد ذلك في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ز- نعمة التوبة عليهم وإرشادهم إليها:

ذكرهم الله تعالى بهذه النعمة بقوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٥٤).

أي: واذكروا يا بني إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا، إذ ظلمتم أنفسكم بشرككم بعبادتكم العجل فدلكم ربكم على ما تتخلصون به من هذا الذنب العظيم، وتكفروا عن خطئكم الجسيم، بأن تتوبوا إلى ربكم وتقتلوا أنفسكم، حتى يقبل الله توبتكم، ففعلتم ذلك فقبل الله منكم، وهو التواب الرحيم، الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات.

ح - نعمة بعثهم بعد موتهم:

وقد ذكرهم بهذه النعمة الجليلة، بعد الآيات السابقة، في قوله تعالى

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٥٥ - ٥٦).

أي: واذكروا إذ تجاوزتم حدودكم، وتعنتم في السؤال والطلب، فقلتم بجفاء وجهل وغلظة: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً وعياناً وعلانيةً؟!

وهذا غاية الجرأة على الله عز وجل، وعلى رسوله عليه الصلاة والسلام فأخذنكم العقوبة التي هي الصاعقة، وهي: الصيحة المهلكة أو النار أو الزلزلة التي أهلكتكم، بسبب تطاولكم على ربكم سبحانه.

ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا، فعفونا عنكم، وأحييناكم من بعد موتكم، كي تشكروا الله على نعمته في إعادتكم للحياة بعد مماتكم، فبعثهم الله لبقية آجالهم.

ط - نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم:

عطف الله تعالى على النعم السابقة، نعم أخرى، وهما تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، قال الله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٥٧).

والغمام هو السحاب، وقيل: السحاب الأبيض. والمن: هو مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه العسل. والسلوى: طائر بري لذيذ الطعم ويسمى بالسماني، يأتيهم كل مساء فيمسكونه بأيديهم دون تعب.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي نعمة إظلالكم

بالغمام وأنتم في التيه ليقيكم حر الشمس، ونعمة إنزال الطعام اللذيذ عليكم وتنويعه، دون تعب، ولا بذل مجهود وكد، وقلنا لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم من الأرزاق، واشكروا لله تعالى هذه النعم، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، ولم تشكروا تلك النعم العظيمة، وهذا الظلم يرجع ضرره إليكم ولا تضروني شيئاً.

فقوله ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فيه دلالة واضحة على جحودهم للنعمة، وعصيانهم أمر الله لهم بالشكر.

وقوله ﴿ يَظۡلِمُونَ ﴾ يدل على أن ظلمهم وجحودهم، كان يتكرر منهم.

ك – نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس:

ومن النعم التي ذكَّرهم الله تعالى بها، فما قاموا بشكرها، ولا أحسنوا قبولها، نعمة دخولهم بيت المقدس، والراحة من التيه في الصحراء، والخلاص من العناء، في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ (البقرة: ٥٨ – ٥٩).

فهذا أيضاً من نعمته تعالى عليهم، بعد معصيتهم إياه فيما مضى، فأمرهم بدخول القرية لتكون لهم سكناً ووطناً، ويحصل لهم بها العيش الرغيد، وهي بيت المقدس على الصحيح من أقوال العلماء والمفسرين، وأن يكون دخولهم مع الخضوع لله والتذلل له، ﴿ سُجَّدٗا ﴾ أي: راكعين وشاكرين

على ما أنعم عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم إليهم، وإنقاذهم من التيه، وأن يقولوا: ﴿ حِطَّةٌ ﴾، أي: يقولوا اللهم حُطَّ عنا خطايانا، ووعدهم المغفرة والرحمة والزيادة في الفضل والخير.

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يظهر الخضوع والتذلل لله تعالى عند النصر والظفر بالأعداء، فعندما تم له فتح مكة، دخل إليها على ناقته وهو كذلك، خاشعاً خاضعاً ﷺ لربه، حتى إن رأسه الشريف يكاد يمس عنق ناقته، شكراً لله تعالى على نعمة الفتح، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمان ركعات من الضحى، وسماها بعض أهل العلم بصلاة الفتح، والحقيقة أنها صلاة الضحى.

وجاء أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، لما دخل إيوان كسرى فاتحاً، صلى بداخله ثمان ركعات.

ولكن ماذا فعل بنو إسرائيل بعد أن تم لهم الفتح، ودخلوا بيت المقدس؟

أنهم لم يفعلوا ما أمروا به، ولم يقولوا ما أمروا به، ولهذا قال تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ (البقرة :٥٩).

وأخرج الإمام البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطةٌ، فبدلوا، ودخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة في شعرة! ».

وقال الحافظ ابن كثير: «أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاهم،

رافعي رؤوسهم! وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزؤوا وقالوا: حنطة في شعيرة! وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه، بفسقهم وخروجهم».

ل – نعمة إغاثتهم بالماء وتفجيره لهم من الحجر:

يتوالى تذكير الله سبحانه لهم بالنعم الجزيلة، فيقول الله لهم ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠)

أي: واذكروا يا بني إسرائيل، نعمة إغاثتكم بالماء لما أصابكم العطش فاستسقيتم نبيكم موسى عليه الصلاة والسلام، فتوسل إلى ربه وتضرع، فأجابه الله تعالى إلى ما طلب، وأوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر، أي حجرٍ شاء، ففعل فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد أسباطكم، وصار لكل سبط منكم مشرب يعرفه ولا يتعدَّاه، وقلنا لكم: كلوا وتمتعوا برزق الله، من مأكول طيب، ومشروب هنيء سهل، لا تعب فيه ولا مشقة.

ثم قال لهم محذراً من الأشر والبطر والغرور، واستعمال النعمة في غير موضعها، ونسيان المنعم وشكره ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي: فتتحول النعم عنكم، وتنقلب إلى نقم وعذاب. والعثا شدة الإفساد، وتجاوز الحد في الإفساد إلى غايته.

م – جحودهم للنعمة واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير:

ثم ذكرهم الله تعالى بما كان منهم من جحود للنعمة، واستخفاف بها، وطلبهم الذي هو أدنى وتفضيلهم له على ما هو خير! بجهلهم وسوء اختيارهم، وضعف عقولهم، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١).

أي: واذكروا يا بني إسرائيل ما كان من سوء اختيار من أسلافكم، وسوء أدب مع نبيكم موسى عليه الصلاة والسلام حيث قالوا له ببطر، وكفر للعيش الرغيد الذي هم فيه : لن نصبر على طعام المن والسلوى! فادع لنا ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرواتها وعدسها وبصلها، لأننا مللنا وسئمنا من المن والسلوى!

قال الحسن البصري: فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقول وفوم .

فوبخهم موسى عليه السلام قائلاً: أتختارون الذي هو أقل فائدة، وأدنى لذة، وأخس منزلة، على ما هو خير لكم وألذ وأطيب؟!

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾ أي: إذا كان هذا مطلبكم،

فاتركوا هذا المكان الذي أنتم فيه، وانزلوا إلى مصرٍ من الأمصار، تجدوا ما سألتموني إياه من البقل والفوم وأشباهه، فليس هو بالأمر العزيز.

ثم ذكر تعالى العقوبات التي حلَّت بهم، جراء كفرهم لنعمة الله عليهم، فقال ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ أي: وضعت عليهم الذلة والمسكنة، وألزموا بها شرعاً وقدراً، فلا يزالون كذلك أبداً ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: رجعوا بغضب الله، ووجب عليهم واستحقوه.

ن- نعمة عفو الله عنهم برحمته رغم نقضهم لميثاقه:

وقد ذكرهم الله بهذه النعمة بعد الآيات السابقة، بقوله سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (البقرة: ٦٣ - ٦٤).

ومعنى الآيتين: واذكروا وقت أن أخذنا عليكم الميثاق والعهد أن تعبدوا الله وتطيعوا رسوله، وتعملوا بما في التوراة، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم في كتابكم بجد واجتهاد، واذكروا ما فيه وتدبروه، لتتقوا الهلاك في الدنيا والآخرة.

ولكن حصل منكم الإعراض عن العمل بما أخذ عليكم من الميثاق، وتركتم الكتاب، فلولا أن الله تعالى رأف بكم ورحمكم، وعفا عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة.

ص – ومن نعمه تعالى عليهم:

ما حكاه الله تعالى في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

فيقص الله علينا قصة الذين خرجوا منهم من ديارهم وهم ألوف مؤلفة، قاصدين الهرب من الموت، والسلامة من وباء أو غيره، ولكن لا يغني حذر من قدر، ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ﴾ فأماتهم عن بكرة أبيهم ﴿ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ إما رحمةً من الله سبحانه ولطفاً بهم، وإما بدعاء نبي، لتكون آية عظيمة على إحياء الله للموتى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي: قليل من عبادي الشكور، الذي يعرف النعمة ويقر بها، ويصرفها في طاعة الله المنعم.

١٧- تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى

من أخلاق بني إسرائيل وأعمالهم القبيحة، والتي وقعوا فيها بفسقهم وظلمهم لأنفسهم، وبسبب شدة جشعهم، وحرصهم على الشهوات وطمعهم، وضعف تمسكهم بأوامر الله تعالى ورسله الكرام: التحايل على المحرمات، والاعتداء على حدود الله عز وجل، ظانين أنهم بذلك ينجون من المخالفة والحرام؟! والعقوبة من الله عز وجل!

١ - ومن صور تحايلهم الكثيرة: ما ذكره الله تعالى من قصة صيدهم للحيتان يوم السبت - المحرم عليهم العمل فيه - حيث احتالوا على ذلك، بأن نصبوا الشباك لها، أو حفروا لها الحفر لتقع فيها، قبل يوم السبت ليجمعوها بعده، وقيل: ألقوا عليها الشباك يوم السبت وأخذوها يوم الأحد!

قال تعالى في بيان قصتهم: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣-١٦٥).

ومعنى الآيات: سل يا محمد بني إسرائيل الذين بحضرتك عن أهل القرية منهم، الذين كانوا بقرب البحر، قيل هي بلدة: أيلة على شاطئ بحر القلزم (البحر الأحمر) وقيل غيرها، فأراد الله سبحانه أن يختبرهم، لينظر مدى تمسكهم بدينه وعهوده، فابتلاهم بتكاثر الحيتان ببحرهم يوم

السبت دون غيره من الأيام، تتراءى لهم ظاهرة على وجه الماء، سهلة الأخذ والاصطياد، فإذا ذهب السبت اختفت! فاحتالوا على المحرم بما ذكرنا.

قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ فبفسقهم ابتلاهم الله، ووجبت عليهم المحنة، فلو لم يفسقوا لعافاهم الله من ذلك الشر والبلاء.

ولقد نصحهم فريقٌ منهم بألا يفعلوا ذلك، لئلا ينزل بهم بأس الله تعالى الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فلم يستمعوا لنصحهم ووعظهم.

وانتقد الدعاة طائفة أخرى على تكرار نصحهم لهم، مع عدم استجابتهم، فقالوا للناصحين ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾(الأعراف: ١٦٤) كأنهم يقولون: لا فائدة من وعظهم ونصيحتهم.

فقال الواعظون ﴿ مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي: نعظهم وننهاهم لنعذر عند الله تعالى، فلا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في قومنا.

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي: لا نيأس من هدايتهم بل لدينا الأمل، فلعلهم يخافون الله فيتركون ما هم عليه من المعصية، ويؤثر فيهم الوعظ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ أي: تناسوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ وهي سنة الله الجارية في عباده، أنه ينجي الآمرين بالمعروف من العذاب إذا نزل بالقوم الظالمين، كما قال هنا ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ وهم الذين اعتدوا وتحايلوا، عذبهم الله عز وجل عذاباً شديداً، ومسخهم قردة خاسئين، عبرة للعاصين، وذكرى للذاكرين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وفي سورة البقرة، ذكر الله تعالى قصتهم باختصار بآيتين في

قوله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥ – ٦٦).

وقوله ﴿ نَكَٰلًا ﴾ أي: عبرة تنكل من اعتبر بها، أي تمنعه من أن يفعل كفعله ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي: زاجرة رادعة لمن شاهدها ممن حضرها، ولمن أتى بعدها.

وفي سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (النساء: ٤٧).

وكذا في سورة النحل ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النحل: ١٢٤).

ب - ومن صور حيلهم القبيحة: تحايلهم على الشحوم لما حرمها الله عليهم، كما قال ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود، لما حرم الله عليهم شحومها، جملوها ثم باعوها فأكلوها»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بلغ عمر رضي الله عنه أن سمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها – أي أذابوها – فباعوها». وفي رواية: «وأكلوا أثمانها» متفق عليه.

١- أخرجه البخاري (٢٢٣٦، ٤٦٣٣) ومسلم (١٥٨١).

وفي رواية أبي داود: «وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء، حرم عليهم ثمنه»[1].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في إغاثة اللهفان في كلامه عن الحيل المحرمة [2]: ومن مكايده – أي الشيطان – التي كاد بها الإسلام وأهله: الحيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرمه الله، وإسقاط ما فرضه، ومضادته في أمره ونهيه، وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه.

فإن الرأي رأيان: رأي يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار، وهو الذي اعتبره السلف، وعملوا به.

ورأي يخالف النصوص، وتشهد له بالإبطال والإهدار، فهو الذي ذموه وأنكروه.

وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً، والظالم مظلوماً، الحق باطلاً، والباطل حقاً، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم.

ثم قال : إن الله سبحانه أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة، لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد، بأن نصبوا

١- السنن (٣٤٨٨)

٢- (١/ ٥٨٢).

الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن تعاطى الحيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه.

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة، جزاءً وفاقاً.

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الوقوع فيما وقعت فيه اليهود، باستحلال محارم الله تعالى بالحيل المحرمة، فقال ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».[1]

١- رواه ابن بطة – انظر الإرواء (١٥٣٥).

١٨- أكلهم أموال الناس بالباطل

فمن صفاتهم المتأصلة فيهم: الإكثار من أكل أموال الناس بغير حق، بالحيلة تارة، وبالرشوة تارة، وبالربا تارات كثيرة، فاليهود سادة العالم في ذلك، وأغلب البنوك الربوية ترجع ملكيتها لهم، وكذا أكلهم أموال الناس بالاحتيال والخداع والميسر بشتى صوره، قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٦٢).

وهذا في معرض تعداد معايبهم، يقول تعالى: أنك ترى كثيراً منهم ليس فقط يقعون في الذنوب، بل ﴿ يُسَٰرِعُونَ ﴾ أي: يبادرون إلى الوقوع في الآثام والمعاصي، والعدوان على المخلوقين، ﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ وهو الحرام بشتى صوره وأشكاله ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء كان اعتداؤهم.

ثم قال سبحانه ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: ٦٣).

أي: هلا كان ينهاهم علماؤهم وأحبارهم، عن هذه الأفعال المنكرة، أي: أنهم تركوا أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

وقال تعالى أيضاً في أكلهم للربا: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦١).

أي: أنهم أكلوا الربا مع علمهم بحرمته، ونهي رسلهم لهم عنه، لكن احتالوا عليه بأنواع الحيل والشبه.

وقال تعالى عنهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤).

فيخبر الله تعالى أن كثيراً من الأحبار وهم علماء اليهود، والرهبان وهم عباد النصارى، والمقصود علماء السوء، وعباد الضلال، أنهم يأكلون الدنيا بالدين، والمناصب والرياسة الدينية في الناس، يأكلون بذلك أموالهم، بما يفرضونه عليهم من أنواع الخراج، والرشاوى المحرمة في سبيل التخفيف والمسامحة في الشرائع والفتاوى، والأتاوات والضرائب، التي تجبى إليهم بغير حق.

وهم مع أكلهم الحرام، يصدون عن سبيل الله تعالى، وعن إتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل.

قال الحافظ ابن كثير: «والمقصود: التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: مَنْ فسد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبهٌ من النصارى.

وفي الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم، حَذْو القُذَّة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم.

وفي المسند[1]: عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم» ثلاثاً، قال قلت: إني على دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: «ألست من الركوسية؟ وأنت تأكل مِرْباع قومك؟! - والمرباع: ربع مال الرعية - قلت: بلى . قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك!» قال: «فلم يَعُدْ أن قالها، فتواضعت لها» الحديث».[2]

وهكذا صار الأمر في بعض أصحاب الأهواء والضلال، من رؤساء الفرق التي تنتسب للإسلام، بما يأخذونه من أتباعهم باسم النذور تارة، وباسم الخمس تارة، وغيرها من المسميات الباطلة؟!

والذي دفعهم إلى هذا هو حب الأموال العاجلة، وإيثارها على الدار الآخرة.

قال ابن كثير: ولهذا قال تعالى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار! وباؤوا بغضب من الله تعالى»!.

١- (٥ / ٢٥٧).

٢-وبعضه عند الإمام البخاري (٣٥٩٥) وغيره.

وكذلك تناسيهم وعيد الله تعالى فيمن كنز الأموال، ولذلك قال تعالى بعدها ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤ – ٣٥).

١٩- صدهم عن سبيل الله تعالى

وهي صفة متأصلة ومستمرة فيهم، ومن مسالكهم الباقية فيهم إلى يومنا هذا، وهي صدهم الناس عن سبيل الله تعالى، ومنعهم إياهم من الوصول للهداية، وثنيهم عن إتباع الحق المبين، ومحاولة رد المسلمين عن دينهم بأنواع الحيل، وصنوف الخداع والتلبيس.

قال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ٩٩).

وهذا تعنيفٌ من الله سبحانه لهم، على كفرهم وعنادهم وصدهم عن سبيل الله مَنْ أراده من أهل الإيمان، بكل جهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأنه حق من الله تعالى بما علموه من كتبهم، وما بشَّرتهم به أنبيائهم.

والله شاهد على أعمالهم وصدهم الناس عن الهداية والحق، وعلى سائر أعمالهم وأقوالهم، وسيجازيهم على ذلك.

ثم قال تعالى محذراً عباده من كيدهم ومكرهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠).

وما ذاك إلا لشدة عداوتهم، وحسدهم للمؤمنين، كما قال سبحانه ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (البقرة: ١٠٩).

وقال تعالى أيضاً فيهم ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٦٠).

أي: بسبب ظلمٍ عظيم منهم - والتنوين للتفخيم - وهو جامع لما ارتكبوه من أنواع الآثام، حرم الله تعالى عليهم بعض الطيبات، ثم بسبب صدهم عن سبيل الله الذي لا أوضح منه، ولا أعظم ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً، إذ أنهم صدوا الناس، وصدوا أنفسهم عن الحق.

ومن مكرهم بأهل الإسلام لردهم عن دينهم، ما ذكره الله تعالى بقوله عنهم ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

وهي حيلة ماكرة خبيثة، لبث الخلل في صفوف المسلمين، وإشاعة الاضطراب، وهي أن يؤمنوا أول النهار، أي: يدخلوا في الإسلام ظاهراً، ليحسن الناس بهم الظن، حتى إذا اطمأنوا إليهم، رجعوا إلى يهوديتهم، وكفروا بالإسلام، ليوهموا حديثي العهد بالإسلام، أو ضعاف الإيمان، أنهم يبحثون عن الحقيقة! وأنهم وجدوا الإسلام دينا باطلا! وأن محمدا ﷺ ليس هو النبي المرتقب! وأنه كاذب فيما يدعيه! وقد اطلعوا على بواطنه وخوافيه!.

وهذه الحيلة الشيطانية سلكها الدهاة منهم، من أجل الصد عن سبيل الله تعالى، وصرف الناس عن الإسلام، وإيقاع الشك والريبة في قلوب الخلق، كما قال تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولا يزالون على هذه الصفة الخبيثة الماكرة، على مر التاريخ والأيام، يحيكون المؤامرات تلو المؤامرات، لكيد هذه الأمة المسلمة العظيمة، بأنواع المكائد، في الدعوة والسياسة وغيرها، لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف المسلمين وغيرهم فالله حسبنا، ونعم المولى هو ونعم النصير.

٢٠- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقد كانت هذه الصفة سبباً لتفشي المنكرات، وارتكاب المحظورات، وشيوع الفواحش والشرور، وعموم الفساد بين اليهود.

وقد ذمهم الله سبحانه على هذه الخصلة في مواضع من كتابه الكريم، فقال تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: ٦٢- ٦٣).

أي: ترى كثيراً منهم يحرصون على الذنوب والمعاصي، ويبادرون إلى الآثام، والعدوان على عباد الله تعالى، وأكلهم الحرام من أموالهم، من الربا والرشوة وغيرها، ومع ذلك ما نهاهم علمائهم عن تلك المحرمات والمنكرات، ليزول عنهم الجهل، وترتفع عنهم الغفلة، وتقوم عليهم الحجة، فإنَّ هذا واجب أهل العلم والحكمة، والدعاة إلى الحق، في زمانٍ ومكان، وعلى كل أمة، بل سكتوا عن ذلك، وتقاعسوا عن واجبهم، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فعاقبهم الله تعالى، وذمهم في كتابه الكريم.

وقال تعالى أيضاً في موضع آخر: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨- ٧٩).

قال ابن كثير: «يُخبر الله تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى بن مريم عليه السلام بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على خلقه، قال العوفي عن ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل، وفي الزبور، وفي الفرقان.

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال تعالى ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليُحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوه، فقال ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

وهذا الذم المتوجه لهم والمؤكد بلام القسم، المحذر من ذنبهم، فيه تعجب أيضاً من سوء فعلهم، وكيف أدَّى بهم إلى الوقوع في اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحذر من هذه الخصلة، فمنها حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أنْ يبعثَ عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم». [1]

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٥). فتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم

١- رواه الإمام أحمد (٥ / ٣٨٨) والترمذي في الفتن (٢٢٧٣).

يأخذوا على يديه، أوشكَ أنْ يَعمَّهم الله بعقاب منه» [1]

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [2].

فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، سبيل النبيين والمرسلين، وأتباعهم من الصالحين المصلحين، والمرشدين الصادقين، وبسببه صارت هذه الأمة خير الأمم، كما قال سبحانه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وأمر الله تعالى بهذه الفريضة عباده المسلمين، فقال ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وهي أيضاً من واجبات من ولاه الله أمر الأمة، من الولاة والحكام، كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١).

بما لديهم من القوة التي يستطيعون بها إقامة الواجبات، ومنع المحرمات، وردع المتجاوزين والمعتدين، بإقامة الحدود والعقوبات الشرعية على العصاة والمجرمين.

١- رواه الترمذي (٢٢٧١).

٢- رواه مسلم (١ / ٦٩).

٢١- حُبُّهم وحرصهم على الحياة وجُبنهم

ومن قبائحهم في كل زمان ومكان: صفة التهالك على الدنيا، والحرص على الحياة، مهما كانت هذه الحياة سيئة أو ذليلة، أو غير شريفة، وقد أدى بهم ذلك إلى الجبن الهالع، والنكوص عن الجهاد في سبيل الله، ونصرة الحق.

قال الله في ذلك ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٩٦).

ومعنى الآية الكريمة: ولتجدن يا رسول الله هؤلاء اليهود، الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وهذا مما يكذب دعواهم هذه! لتجدنهم أشد الناس حرصاً على الحياة، وأشدهم كراهية للموت، من دون استثناء، أي: الناس جميعاً، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور؟ ولو كانت تلك الحياة حياة بؤس وشقاء، لا راحة فيها ولا طمأنينة، كما يفيده التنكير في قوله سبحانه ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ أي: بصرف النظر عن العزة والكرامة. ويقال: إن في أمثالهم: الحياة وكفى!

وكثيراً ما نقل المجاهدون العرب، كيف كان جنود اليهود يربطهم قادتهم بالسلاسل داخل دباباتهم، كي لا يهربوا منها أثناء حروبهم!

وهم في حرصهم يتمنون أن تطول أعمارهم دهوراً طويلة، لا يصل إليها خيال أحد! كما قال سبحانه ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

ثم بين تعالى أنهم لو عُمِّروا كما تمنوا، فإنه لن ينجيهم من عذاب الله تعالى وعقوبته، لأن الموت مدركهم لا محالة، فقال ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي: لا ينجيه عنه ولو طال عمره، فلا أثر له. وقوله ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم ووعيد، أنه سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون.

وكذا ما جاء في قصتهم مع موسى عليه الصلاة والسلام، لما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فقال لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ (المائدة: ٢١ – ٢٢).

فقوله ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي: قَسمَ لكم سكناها، ووعدكم بها، إن أنتم آمنتم به واتبعتم رسله، وجاهدتم في سبيله.

أو كتب ههنا بمعنى: فرض عليكم دخولها، وأمركم بها، كما كتب عليكم الصلاة والزكاة.

وقوله ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أي: فحذرهم من التقاعس والجبن فقال لهم: لا ترجعوا عمّا أمركم الله تعالى به، ولا ترتدوا عن الهداية وتجبنوا عن القتال في سبيل الله، فإن ذلك يؤدي بكم إلى الخسار في الدنيا والآخرة، وحرمانكم خيرات الأرض التي كتبت لكم.

لكنهم أبوا الانقياد لله، والسمع والطاعة لرسول الله ﷺ، وأصروا على

تضييع فريضة الجهاد، وتعللوا: بأن فيها قوما أولو قوة، وأولو بأس شديد، ولا قدرة لنا بحربهم.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك أن رجلين منهم وُصِفا بأنهما من المتقين لله، قد أنكرا عليهم تقاعسهم عن الجهاد، وبشروهم بالنصر إن هم قاموا بما أمرهم الله تعالى به، وتوكلوا على الله ربهم، فقال سبحانه ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة ٢٣.

لكن هذه النصيحة لم تجد لدى بني إسرائيل آذاناً صاغيةً، ولا قلوباً واعيةً، بل قابلوها بالإعراض، والإصرار والعناد، وكرروا رفضهم لدخول الأرض المقدسة ما دام الجبارون فيها، وقالوا لموسى عليه السلام بكل وقاحة وجبن ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤).

أي: لن ندخل هذه الأرض طول حياتنا، ما داموا هؤلاء الأقوياء المتغلبين الذين لا قدرة لنا على قتالهم، ساكنين فيها ؟

وهذه الآيات تُصوِّر لنا ما هم عليه من جبن شديد، وخور وضعف، وتعلق بالحياة، وعصيان لرسل الله تعالى، وإيثار للراحة والدعة والكسل، على العزة والجهاد!

ومن جبنهم وحرصهم على الحياة:

أنهم اخترعوا في زماننا هذا، ما يسمى بالمستوطنات، وهي قرى خاصة بهم، لا يشاركهم فيها السكنى أحد من خلق الله! والمحصنة والمحمية بالقوة

العسكرية، ثم اخترعوا الجدار الفاصل بينهم وبين المسلمين في فلسطين! لئلا يدخل إليهم أحد!

فوقع عليهم قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر: ١٤).

أي: لا ثبات لهم ولا عزيمة لهم على القتال، إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدار، معتمدين عليها، لا على أنفسهم، أي: بغير مواجهة ولا مقابلة.

٢٢- الحسد

وهو من أخلاقهم المذمومة، ورذائلهم النفسية، وطبائعهم الخبيثة، وهو ذنب إبليس الأول الذي حمله على معصية الله تعالى، ورفض السجود لآدم عليه السلام، فاستحق اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى.

وقد حملهم الحسد على ترك الإيمان برسول الله محمد ﷺ، والكفر به وبدينه، والنيل من صحابته رضوان الله عنهم، حسداً وظلماً وعدواناً، واحتقاراً للعرب، قال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (البقرة: ١٠٩).

فيخبر الله سبحانه عن حسد كثير من أهل الكتاب، ويحذر من عداوتهم في الظاهر والباطن، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا لو أنكم ترجعوا إلى الكفر بالله تعالى والشرك، وقد سعوا في ذلك وحاولوا - كما سبق أن أوضحنا - ومكروا وكادوا، فرد الله كيدهم في نحرهم، وعصم المؤمنين من شرهم، مع أنهم يعلمون فضل الإيمان بالله سبحانه، وفضل نبي الله ﷺ، وفضل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الحسد أعمى بصيرتهم، وأوردهم الهلاك وخسارة الدنيا والآخرة!

فأمر سبحانه بالإعراض عنهم فقال ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقال تعالى أيضاً مبيناً ما فعله الحسد باليهود، وما جرهم إليه من المنكر العظيم، من ترك الإيمان بالله تعالى وبرسول الله ﷺ، واعتاضوا عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت! أي: السحر والكهانة، والعياذ بالله سبحانه، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥١ – ٥٤).

فالحسد حملهم على الكفر بالله ورسوله ﷺ، والبغض له ولأصحابه، ففضلوا السحر والكهانة وعبادة غير الله، على شرع الله وكتابه؟! وقدموا طريقة المشركين عباد الأصنام والأوثان، على طريق المؤمنين بالله الموحدين! فما أشد عنادهم وتمردهم ؟ وما أعظم حسدهم وبغيهم؟!

وكيف يمكن أن يفضل العاقل اللبيب ديناً قام على الوثنية والشرك والجهل، وتسوية الخالق بالمخلوق، واستباحة المحرمات والخبائث، على الحنيفية السمحة، القائمة على عبادة الرحمن وحده لا شريك، والإخلاص له في السر والعلن، والمستقيمة على صراط الله عز وجل، والاقتصار على الطيبات، وترك الخبائث والمحرمات، والتزام العدل في الأقوال والأفعال، سبحانك هذا بهتان عظيم! (بتصرف من السعدي).

ولهذا طردهم الله تعالى من رحمته، فقال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ أي: فلن تجد له من يتولاه، ويقوم بمصالحه

ويحفظه وينصره، وهذا من الخذلان، نعوذ بالله العظيم من ذلك.

ثم بيَّن تعالى أن اعتراضهم على إيتاء الله النبوة لمحمد النبي ﷺ هو اعتراضٌ في غير محله، لأن الأمر ليس لهم، ولا يملكونه، ولو كان الأمر بأيديهم لبخلوا به، وشحوا أشد الشح، ولم يؤتوا الناس شيئاً، ولا نقيراً، وهي النقرة التي بظهر نواة التمر، وضربت مثلاً للشيء الزهيد.

أم أن الحامل لهم على ترك الإيمان هو الحسد للرسول ﷺ وللصحابة، على ما أنعم الله بهم عليهم من نعمة الإسلام والإيمان، فإن الحسد طبعهم وسجيتهم، ولا غرابة في ذلك! وليس عنهم ببعيد!

وقوله ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي: قد أنعم الله فيما مضى على خليله إبراهيم وذريته عليهم الصلاة والسلام، بإنزال الكتب، وإيتاء النبوات، فكيف ينكرون إنعامه على محمد النبي ﷺ وأصحابه بالنبوة والكتاب، فكانوا أعلم الناس بالله تعالى وأتقاهم وأخشاهم، أم كيف يجحدون فضله عليهم بالملك العظيم، وبالنصر على أعدائهم ومخالفيهم؟!

ثم قال سبحانه ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ (النساء :٥٥) أي: فمنهم من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام، وما آتاه الله من فضله، ومنهم من صدَّ عنه وكفر بذلك، وكفى بالنار وجحيمها، عقوبةً له على كفره وعناده.

ومن صور حسدهم في السنة النبوية: ما بينه النبي ﷺ في حديثه:

١- فقد روى ابن ماجة في سننه: عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين» [١].

قال العلماء: إنما حسدوا المسلمين على ذلك، لما علموا فيهما من الفضل والخير والبركة.

فالتأمين وهو قولنا: آمين، كلمة تعني: اللهم استجب لنا دعاءنا.

وقد جاء في الحديث أن: «مَن وافقَ تأمينه تأمين الملائكة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه» [٢].

والموافقة هي الموافقة في القول والزمان، أي: يقولها في محلها بعد الإمام، دون غفلة عنها، وهي قولٌ يسير لا كُلْفة فيه ولا مشقة، وفيها هذا الفضل العظيم من تكفير الذنوب.

حتى قيل: إنها تشمل الصغائر والكبائر، لعموم الحديث .

وكذا السلام، فإنه اسمٌ من أسماء الله تعالى، فهو المُسلِّم على عباده، من أنبيائه ورسله والمؤمنين، في الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل: ٥٩).

وهو شعار المسلمين المميز لهم عن غيرهم من الملل، وقد تساهل فيه كثير من المسلمين، فتركوا السلام إلا على من يعرفون! واستبدلوه بأنواع أخرى من التحيات!

١- السنن (٨٥٦).

٢- رواه البخاري (٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢) وغيره.

وقد ورد الأمر بإفشاء السلام بين المسلمين، قال تعالى ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور: ٦١).

فقوله: ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿ مُبَٰرَكَةً ﴾ لما فيها من البركة والخير والنماء ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لأنها كلام طيب محبوب لله سبحانه، وبه تطيب النفوس، ويحصل التآلف والتحاب والتواد.

وإفشاء السلام علامة الإيمان، ومن أسباب دخول الجنة، وعنوان التواضع.

٢- ومن حسدهم أيضاً: ما جاء [١]: عنها أيضاً : أنه قال ﷺ : « ... إنهم لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التي هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» [٢].

وهذا أيضاً لما في يوم الجمعة من الفضل والبركة، وكونها عيد المسلمين الأسبوعي، وقد ضلوا عنه هم والنصارى، كما قال النبي ﷺ: «أَضلَّ الله عن الجمعة مَنْ كان قبلنا، فكان لليهود السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق» [٣].

وقال أيضاً: ﷺ: «من أفضلِ أيامكم يوم الجمعة، فيه خَلقَ الله آدم، وفيه قُبض، وفيه الصعقة، وفيه النفخة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن

١- رواه أحمد (٢٥٠٢٩).

٢- وصححه الألباني في الترغيب (٥١٥).

٣- رواه مسلم (٨٥٦).

صلاتكم معروضة علي» [1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ يوم طلعتْ عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» [2].

وفيه أيضاً: «ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم، وهو يصلي، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» [3].

وقوله «وهو يصلي» أي: ينتظر الصلاة، كما فسره ابن سلاَّم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد حذر النبي ﷺ أمته من هذا الداء الوبيل داء الحسد، فعن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ والبغضاء، والبغضاء هي الحَالقةُ، حالقة الدِّين، لا حالقة الشعر، والذي نفسي بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [4].

هذا آخر ما تم جمعة في صفات اليهود من القرآن والسنة، والتحذير من مشابهتهم:

والله تعالى اعلم.
وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

١- رواه أحمد (٤ / ٨) وأبو داود (١٠٤٧) وابن ماجة (٣/٩١، ٩٢).

٢- أخرجه الترمذي (٤٨٨).

٣- رواه مالك في الموطأ (١/١٠٨، ١١٠) وأحمد (٢/٤٨٦) وأصحاب السنن إلا ابن ماجة.

٤- رواه أحمد (١/١٦٥) وغيره.

وعيد الله وعقوبات لليهود
في
القرآن والسنة

وعيد الله وعقوباته لليهود في القرآن والسنة النبوية

قد ذكرنا في الصفحات السابقة شيئاً من صفات اليهود الوارد ذكرها في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وها نحن نتبع ذلك بالكلام على وعيد الله لهم، وعقوباته التي أنزلها بهم، بسبب عصيانهم لربهم تعالى، وكفرهم بنعمه، ومخالفتهم رسله، وبغيهم وعدوانهم، وللكافرين والفاسقين أمثالها، وما ربك بظلام للعبيد.

فمن ذلك:

١- ضرب الذلة عليهم

فقد قال ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠ – ١١٢).

فقد مدح الله تعالى هذه الأمة الإسلامية المباركة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وذلك أنها أمة تأمر بالمعروف، وتنهى من المنكر، وتؤمن بالله تعالى، ثم وصف اليهود والنصارى بصفات مذمومة، وأخبر بأنهم لو آمنوا لكان خيرا لهم، ولكنهم اختاروا الكفر على الإيمان، ولم يؤمن منهم إلا قلة قليلة، وأما الباقون وهم الأكثر، فقد أعرضوا عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتمردوا على أوامر الله، وعاندوا وفسقوا.

ثم بشر الله تعالى عباده المؤمنين بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب، والتي ناصبت المؤمنين العداء، لن تضرها ضرراً بالغاً يؤثر فيها، وإنما هو مجرد أذى، كأذى الحر والبرد، بألسنتهم وأقوالهم أو أفعالهم، فقال ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾.

أي: ما دمتم متمسِّكين بدينكم، محافظين على طاعته، فإن الله معكم، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

ثم بشَّر الله تعالى المؤمنين بالنصر إذا قاتلهم اليهود، ومن على شاكلتهم، فقال ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وتولية الأدبار دليل الهزيمة، لأن المنهزم يحول ظهره هارباً إلى ملجأٍ يلجأ إليه.

وقوله ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ بشارة ثالثة، وهي أنهم بعد نصر المسلمين عليهم، لن تكون لهمٌ قوة ولا شوكة، ما دمتم أنتم مستقيمين على أمر ربكم، وهم مستمرون على كفرهم بالله تعالى، لأن الله تكفل بنصر من ينصره.

ولهذا إذا قيل: الذي نراه الآن أن اليهود قد تسلطوا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة في وسط بلادهم، فكيف التوفيق؟!

والجواب واضح: أن المسلمين الأوائل لما كانوا متمسكين بدينهم، نصرهم الله عز وجل، ولكن لما تغيروا في عصرنا فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً، وتقاتلوا فيما بينهم، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بدينهم، وأقبلوا على دنياهم، ولم يعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة، فلما بدّلوا بدل الله حالهم، وسلَّط عليهم عدوهم الذي لا يرحمهم، لأنه تعالى ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

ثم بين تعالى بعض عقوباته عليهم فقال ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران ١١٢).

والذلة هي الصغار والهوان والحقارة، وقد صور الله تعالى الذلة عليهم، بأنها كالقبة التي تغطي من ضربت عليه، والمعنى أنها أحاطت بهم من جميع جوانبهم.

وأما الحبل: فالمراد به العهد، قال ابن جرير: «وأما الحبل الذي ذكر الله تعالى في هذا الموضع، فإنه السبب الذي يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده، قبل أن يثقفوا في بلاد الإسلام» [1].

ومعنى الآية الإجمالي : أن الله سبحانه ضرب على اليهود الذلة والمسكنة في كل زمان ومكان، بسبب كفرهم وعصيانهم وتمردهم، وسلَّط عليهم من يسلب عنهم الملك والسلطان إلا بحبل من الناس، فهم يعيشون الآن تحت حماية دول الكفر الكبرى، تمدهم بأسباب القوة والسلاح والحياة، وتتعهد بحمايتهم، وتدافع عنهم.

ومتى رجع المسلمون إلى دينهم، وتمسكوا بشريعتهم، واجتمعت قلوبهم، فإن الله تعالى سيلقي الرعب في قلوب عدوهم، وسينصرهم عليهم.

ثم بين الله تعالى عقوبتين أخريين أنزلها بهم، وهما :

١- التفسير (٤٨/٢)

٣،٢- غَضَبِ اللهِ عَلَيهِمْ وضَرْبِ المَسْكَنة

قال تعالى عن هاتين العقوبتين ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: بجانب ما حصل لهم من الذلة حيثما حلوا، قد صاروا في غضب الله عز وجل، مستحقين له.

وضربت عليهم كذلك المسكنة، وهي من السُّكون، لأن المسكين قليل الحركة من الفقر والهوان، وقد تصاحب الإنسان هذه الحالة، ولو كان غنياً وقوي البدن!

ثم ذكر سبحانه أسباب هذه العقوبات فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: ما أصابهم من الذل والمسكنة والهزيمة والغضب، إنما كان كله بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم لأنبياء ظلماً وعدواناً، وتماديهم في المعاصي والآثام، فاستحقوا بذلك تلك العقوبات ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(النحل: ١٠٨).

٤- تمزيقهم في الأرض وتسليط الله عليهم

ومن العقوبات الشديدة التي أنزلها الله تعالى بهم بسبب كفرهم وفسقهم، وإفسادهم في الأرض، تسليط الله عليهم مَن يُذيقهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ومَن يشتِّت شملهم، ويفرِّق جمعهم، كما قال عز وجل ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٧ - ١٦٨).

فقوله ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى آذن، أي: أعلم، وأكده بلام القسم، ونون التوكيد، أنه أعلم اليهود بقضائه فيهم، وهو أنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة، من يوقع بهم أنواع العذاب والهوان والصغار، بسبب ما تقدم من سيئاتهم، واستمرارهم عليها.

ثم قال سبحانه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: لسريع العقاب لمن كفر بالله تعالى، وآياته وكتابه، ورسوله ﷺ ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب إليه توبة صادقة، وأقلع عن ذنبه.

وهذا ترغيبٌ لهم بعد الترهيب، حتى لا ييأسوا من رحمة الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه عن تفريقهم في الأرض، وتشريدهم وتمزيقهم، جزاء أفعالهم، فقال ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ أي: بسبب عصيانهم وفسقهم وظلمهم لأنفسهم، جعلناهم أمة مقطَّعة الأوصال في الأرض، مفرقين في البلدان، في كل ناحية منهم طائفة،

وهم مع هذا الحال مختلفون فيما بينهم، منهم الصالح المؤمن المستقيم وهم قلة، ومنهم دون ذلك من الظالمين وهم الأكثرية.

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: وقد اختبرناهم على عادتنا، تارة بالحسنات: وهي النعم والرخاء، وبالسيئات: وهي المصائب والعسر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: عما هم من الأعمال والأخلاق الردية.

وما أخبرت به الآيتان الكريمتان، من تسليط من يسوم اليهود سوء العذاب في الأرض إلى يوم القيامة، قد شهد بصدقه التاريخ على مر الأيام، وأيدته الحوادث، بسبب فسادهم وإفسادهم.

فمن ذلك: تسليط (سرجون) ملك آشور عليهم سنة (٧٢١) ق. م. فقتل منهم الآلاف من الرجال، وأسر البقية الباقية منهم.

وفي سنة (٦٠٦) ق. م. زحف (بختنصر) ملك بابل على مملكة يهوذا، واحتل (أورشليم) وتوابعها، وأذل أهلها إذلالاً شديداً، وثار عليه اليهود بعد فترة من احتلاله لهم، فعاد إليهم مرة أخرى سنة (٥٩٩) ق.م. فقتل منهم الآلاف، وساق سراتهم وأعيانهم أسرى إلى بابل، وأخذ معه كنوز الهيكل وتحفه.

وفي سنة (٣٢٠) ق.م. سار إليهم (بطليوس) خليفة الإسكندر، فهدم القدس، ودك أسوارها، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر.

وفي سنة (٢٠٠) ق.م. وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين، ورأى فيهم حكام السلوقيين تمرداً وعصياناً، فأنزلوا بهم أشد العقوبات.

وفي سنة (٦٣) ق.م. أغار الرومان بقيادة (بامبيوس) على أورشليم

فاحتلوها، واستمر احتلالهم لها حتى سنة (٦١٤) م، وفي خلال احتلال الرومان لفلسطين، قام اليهود بعدة ثورات انتهت كلها بالفشل، ولقوا بسببها ألواناً من الأذى والقتل والسبي والتشريد.

هذه بعض النماذج التي سقناها لما حصل لليهود، وقد أشار القرآن الكريم إلى إفسادين عظيمين وعقوبتين وهو ما ذكره الله تعالى عنهم في سورة بني إسرائيل - الإسراء - كما قال تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٤ - ٨).

وقد سبق الكلام عليا في ذكر صفة إفسادهم في الأرض.

قال السعدي: «واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلَّطين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من شريعتهم، وطغوا في الأرض».

ثم قال تعالى لهم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: نفع ذلك عائد إليكم، في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: يعود الضرر عليكم، كما أراكم من تسليط الأعداء عليكم.

وهذا مستمر عليهم إلى يوم القيامة، لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أي: إن عدتم إلى الإفساد، عدنا إلى عقوبتكم.

فعادوا إلى ذلك في عهد نبوة محمد ﷺ، فسلط الله عز وجل عليهم رسوله محمداً ﷺ، فانتقم الله منهم به، وهذا جزاء الدنيا، وأما جزاء الآخرة، فكما قال سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبداً.

وفي ضمن هذه الآيات تحذير لهذه الأمة، من الوقوع فيما وقعت فيه اليهود من المعاصي والذنوب، لئلا يصيبهم ما أصابهم من العقوبات، وتسليط الأعداء، فسنة الله تعالى في خلقه واحدة، لا تتغير ولا تتبدل.

قال السعدي: «ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين، عرف ذلك، من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله، وسنة رسوله، مكّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم ».

وأما تسليط الرسول ﷺ عليهم، فإنه كان ﷺ قد عاهدهم أول ما وصل المدينة، وأنهم أمة مع المسلمين، وللمسلمين دينهم ولليهود دينهم، وأن بينهم النصر والأسوة والبر دون الإثم، غير مظلومين، وأنهم على من حارب أهل هذه المعاهدة، أو داهم المدينة.

لكنهم رغم هذه المعاهدة التي فيها الرعاية لهم والمصافاة، وصون دمائهم وأموالهم، واستعمال الرفق والحلم معهم، انطلقوا بالبغي والمكر والفساد في أرض المدينة وغيرها، بل وبين المسلمين أنفسهم، تارة يشككون في

شخص النبي ﷺ ونبوته وشرائع دينه! وتارة يقولون أن المشركين أهدى وأفضل من المسلمين سبيلاً! وتارة يفتحون صدورهم ودورهم للمشركين، ويدلونهم على عورات المؤمنين، وتارة يهيجونهم على حرب المسلمين القبائل والأحزاب! وتارة يحاولون اغتيال النبي ﷺ وقتله، وغير ذلك من أنواع الفساد والإفساد.

وكان أول من كشف عن غله وحقده على المسلمين، ونقض عهده منهم: بنو قينقاع الذين كانوا يقيمون داخل المدينة، وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين، فعندما حصلت غزوة بدر وانتصر فيها المسلمون، غصوا بذلك، وحقروا من شأن النصر للمسلمين، ويظهر ذلك من موقفهم عندما جمعهم في سوقهم بعد بدر، وقال لهم: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً»، فقالوا لرسول الله ﷺ كما جاء في كتب السيرة قالوا له: «لا يغرنك أنك قتلت نفراً في قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال! إنك لو قاتلتنا، لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا! فأنزل الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (آل عمران: ١٢ - ١٣) [1]

فلما تكرر أذاهم للمسلمين، حاصرهم رسول الله ﷺ وغزاهم وهم في

١- لابن إسحاق (٢٩٤) وابن هشام (٤٧/٢) وسنن أبي داود (٣٠٠١)، وانظر تفسير الطبري (٥/ ٢٣٩ - ٢٤٠).

حصونهم خمس عشرة ليلة في شوال من السنة الثانية من الهجرة بعد بدر بستة أشهر، حتى اضطروا للتسليم ورضوا بما يصنعه رسول الله ﷺ فيهم، ونزلوا على حكمه، وشفع فيهم عبدالله بن أبي بن سلول وكانوا مواليه، فأمر بهم فخرجوا من المدينة، فرحلوا إلى أذرعات من بالشام، وقد كان خيراً لهم لو بقوا بجوار رسول الله ﷺ وفي عهده وأمانه، لكنهم تعجلوا الشر لأنفسهم.

ثم كانت «غزوة بني النضير»: بعد غزوة «أحد» وذلك بعد أن نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، إذ حاولوا قتله عليه الصلاة والسلام بأن يلقوا عليه رحى من فوق جدار لهم! وانتدبوا لذلك رجلاً منهم يقال له: عمرو بن جحاش لعنه الله، وأعلم الله تعالى رسوله الله ﷺ بذلك، فرجع إلى المدينة وأخبرهم بما أعلمه الله من أمر اليهود وندب الناس إلى قتالهم، فخرج في ربيع الأول فحاصرهم ست ليالٍ منه، ودس عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين إلى بني النضير: إنا معكم نقاتل معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فاغتروا بذلك، فتحصنوا في آطامهم فأمر النبي الله ﷺ بقطع نخيلهم وإحراقها.[1]

حتى نزلوا على الجلاء، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويحقن دماءهم، وأن لهم ما حملت إبلهم غير السلاح فأجابهم إلى ذلك، فخرجت طائفة منهم إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام.

وأنزل الله تعالى فيهم أول سورة الحشر، فقال ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ

١- البخاري (٤٠٣١) عن ابن عمر، وهي: البويرة.

مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحشر: ٢ - ٦).

فأخرج الله بني النضير بعد أن أعجبوا بحصونهم وغرتهم، وظنوا أنها ستمنعهم وتحميهم من رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يقدر عليها أحد، فلم تغن عنهم شيئاً، وقذف الله في قلوبهم الرعب والفزع، والخوف الشديد من جنده.

وقوله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي: عادوهما وحاربوهما وعصوهما ﴿ وَمَن يُشَآقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقد فعل فأنزل بهم عقابه.

ثم كانت غزوة بني قريظة: لما خانوا الله ورسوله ﷺ، في وقت الشدة والكرب، واجتماع أحزاب الكفر على المؤمنين، وظاهروا المشركين في غزوة الخندق، قاصدين بذلك المشاركة في القضاء على النبي ﷺ وأصحابه، وتسليمهم إلى من يقتلهم، ويستبيح نساءهم وذراريهم!

فعندما رجع النبي ﷺ من الخندق بعد هزيمة المشركين التي ذكرها الله بقوله ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب: ٢٥).

قال سبحانه بعدها ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٦ – ٢٧).

جاءه جبريل عليه السلام فأمره بالخروج لقتال بني قريظة، كما في البخاري. [١]

فأمر الرسول ﷺ أصحابه ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، ليعجلوا الخروج إليهم لحصارهم وعقوبتهم بسبب خيانتهم العظمى، فحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه وكانوا مواليه في الجاهلية وظنوا أنه يرفق بهم، فبعث إليه رسول الله ﷺ فأتي به وكان قد أصيب في أكحله، فلما دنا من المسجد قال ﷺ للأنصار قوموا إلى سيدكم أو إلى خيركم، ثم قال له ﷺ : «هؤلاء نزلوا على حكمك»، فقال سعد رضي الله عنه: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «قضيت فيهم بحكم الله»، أو قال: «بحكم الملك» [٢] وفي رواية «من فوق سبعة أرقعة».

فأمر النبي ﷺ أن يقتل من أنبت منهم – أي شعر العانة وهي علامة البلوغ – ويترك من لم يكن أنبت، فضربت أعناقهم في خنادق حفرت في سوق المدينة، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة .

١- الفتح (٤١١٧).

٢- رواه البخاري (٤١٢١، ٤١٢٢).

٥- تحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم

من العقوبات التي عاقب الله تعالى بها اليهود: تحريم بعض الطيبات عليهم بعد أن كانت حلالاً، وذلك بسبب بغيهم وظلمهم، وقد بيَّن الله تعالى ما حرمه عليهم في كتابه، فقال ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

ففي هذه الآية بيان لما حرمه الله تعالى عليهم من الطيبات، جزاء ظلمهم وتعديهم حرمات الله، وتضييقاً عليهم، فلم يحرمه الله لخبثه وضرره، وإنما حرمه عليهم على وجه العقوبة والتأديب والردع، فحرم عليهم ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع والحافر، كالإبل والنعام والبط، كما قال ابن عباس وغيره [1] ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ كما حرم عليهم شحوم البقر والغنم، وليس جميع الشحم، بل شحم الإلية والثروب - وهو الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء والكليتين - وأباح لهم: شحم الظهر، والحوايا وهو المباعر، وما اختلط بعظم.

ثم قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أي: ما حرمناه عليهم مما ذكرناه في الآية، إنما حرمناه عقوبة لهم منا على أعمالهم السيئة، وبغيهم وتطاولهم على حدود ربهم.

١- انظر الطبري (٦٣٨/٩).

﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ في خبرنا هذا، وفي كل ما نقول ونفعل ونحكم به.

قال قتادة: إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث، عقوبة لهم، وتشديداً عليهم.

ثم حذرهم من الكفر والطغيان فقال ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الانعام : ١٤٧) أي: إن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود وأمثالهم فيما أخبرناك من أنا حرمنا عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم، فقل لهم: صحيح إن الله تعالى ذو رحمة واسعة، ورحمته وسعت كل شيء، ومن رحمته أنه لا يعاجل المسيء بالعقوبة، إلا أن بأسه إذا نزل بالعصاة من خلقة، والمصرين على الآثام والذنوب، لا يرد ولا يؤخر عنهم.

ومثل الآيات السابقة: قوله تبارك وتعالى في سورة النساء ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٠ – ١٦١).

فيخبر تعالى فيها أيضا أنه حرم عليهم طيبات كانت لهم حلالاً، وقال ﴿ طَيِّبَٰتٍ ﴾ إشارة إلى أنه لم يحرم عليهم كل الطيبات، بل حرم بعضها، ثم ذكر أنواعاً من سيئاتهم التي أوجبت لهم تلك العقوبة:

فأولا: بسبب ظلمهم واعتدائهم، ثم بصدهم الناس عن سبيل الله الحق، ومنعهم عن الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهاهم الله عنه، وبأكل أموالهم بالحيل والشبه والرشوة.

قال العلماء: لما عاملوا خلق الله بالربا والظلم، ومنعوهم العدل، عاملهم الله بجنس عملهم، فحرم عليهم بعض الطيبات، ومنعهم منها تأديباً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ثم بين تعالى جزاءهم في الآخرة، فقال ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا لهم في الآخرة عذاباً مؤلماً موجعاً، جزاء بغيهم وظلمهم.

وقد أنصف الله تعالى من يستحق الإنصاف منهم بعد ذلك، وبشرهم بالثواب الجزيل، فقال ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والراسخ في العلم هو الثابت عليه، المتمكن فيه والمتقن له، والمتبصر الذي عرف حقائقه، فلا تؤثر فيه الأهواء ولا الشبهات.

والمؤمنون بالله واليوم الآخر، وبك وبما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، والمقيمون للصلوات الدائمون عليها، والذين يعطون زكاة أموالهم، فهؤلاء سنعطيهم أجراً عظيماً، ولا نضيع أجرهم.

٦- عقوبة المسخ

من العقوبات التي أنزلها الله تعالى باليهود، عقوبة المسخ إلى صورة القردة والخنازير، نعوذ بمولانا الكريم من سخطه وغضبه.

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥ – ٦٦).

قال الحافظ ابن كثير: «ولقد علمتم الذين يا معشر اليهود ما أحلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان (الأسماك) في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة، نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم.

وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف: حيث يقول تعالى ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

قال قتادة: فصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساءً، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم، فيقولون: يا فلان ألم ننهكم ؟! فيقولون برؤوسهم: أي بلى.

وعن أبي العالية: ﴿ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ يعني: أذلة صاغرين.

وعن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه [1].

وقال سبحانه عن هذه العقوبة: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٦٠).

لما قدح اليهود في المؤمنين، وعابوا عليهم ما ليس بعيب، قال سبحانه ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٥٩)

أي: والحقيقة أن العيب فيكم، وأن أكثركم فاسق خارج عن طاعة الله تعالى.

ثم أخبر تعالى عن شناعة ما كانوا عليه من صفات، فقال ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ من الذي نقمتم به علينا، ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أبعده عن رحمته، وهي الصفة الأولى.

﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي: سخط عليه وعاقبه بسبب كفره، وانهماكه في معصية الله، وهي الصفة الثانية.

﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ أي: مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير،

١- انتهى مختصراً من التفسير.

لتعديهم حدود الله عز وجل، ومخالفتهم أمره، وهي الصفة الثالثة.

قال بعض المفسرين: «عنى الله تعالى بالقردة: أصحاب السبت، وبالخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام».

وقال آخرون: «إن المسخين كانا في أصحاب السبت، لأن شُبَّانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير».

﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾أي: عُبّاد الشيطان، وكل ما عبد من دون الله من شهوة أو هوى فهو طاغوت، وهي الصفة الرابعة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: الموصوفون بما سبق من الأوصاف، شرُّ الناس مكاناً ومنزلة عند الله تعالى، في الدنيا والآخرة، وأضلهم عن الصراط المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، فكيف يعيبون على أهل الإسلام ويعيرونهم؟!

أما قول مجاهد: ما مسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم! وإنما هو مثل ضربه الله كقوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا)!

قال الحافظ ابن كثير: قول غريب، خلاف الظاهر من السياق، في هذا المقام وفي غيره. وقال: بل الصحيح أنه معنوي وصوري» [1].

قلت: وهو الصواب، وأن المسخ الذي حصل لهم كان حقيقياً لصورهم وأبدانهم، لدلالة ظواهر الآيات الكريمة عليه، وعليه عامة أهل التفسير، ولما ورد أيضاً في الأحاديث النبوية الصحيحة.

١- حسن التحرير (١/٧٠).

ومما يدل على وقوع المسخ حقيقة:

١- ما رواه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله، القردة والخنازير، هي مما مسخ الله؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يهلك قوماً، أو لم يعذب قوماً، فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» [١]

فأقره ﷺ على اعتقاده وقوع المسخ فيهم، وبين له أن الله لم يجعل للممسوخ نسلا، بل يموت بعد ثلاث كما جاء في بعض الروايات.

٢- وفي رواية لمسلم أيضاً: وذكرت عنده القردة والخنازير من مسخ، فقال ﷺ: «إن الله لم يجعل لمسخٍ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك».

وقوله «قبل ذلك» أي: كانت مخلوقة قبل مسخ بني إسرائيل.

٣- وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن أعرابياً سئل ﷺ عن أكل الضب، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى غضب على سبط من بني إسرائيل، فمسخوا دواب، فلا أدري لعله بعضها، فلست بآكلها، ولا أنهى عنها» [٢].

ثم علم ﷺ أنه ليس منها، لأن الممسوخ لا عقب له، فسمح بأكله على مائدته، لكن هو استقذره فلم يأكله كما جاء في الحديث.

٤- وقد أخبر النبي ﷺ أن سيكون في أمته مسخ كما حصل لبني إسرائيل، إذا هم عملوا ببعض المعاصي، واستحلوا بعض المحرمات، ففي حديث أبي

١- رواه مسلم (٤/ ٢٠٥١).

٢- رواه مسلم (١٥٤٦/٣) وأحمد (٦٢/٣) واللفظ له.

مالك أو أبي عامر الأشعري: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليكوننّ من أمتي أقوام يستحلّون الحِرَ والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علَمٍ (أي: جبل عالٍ) يروح عليهم بسارحةٍ لهم (أي: ماشية) يأتيهم - يعني الفقير - لحاجةٍ فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيبيّتهم الله، ويضع العلم (أي يوقعه عليهم)، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة» [1].

ففي هذا الحديث: يخبر النبي ﷺ أنه سيكون أقوام من أمته يستحلّون الحِرَ، وهو الفرج، وهو كناية عن الزنا، والحرير والخمر والمعازف، وقوله «يستحلّون» صريحة في أنّ المذكورات ومنها (المعازف) هي في الشرع محرمة، فيستحلّها أولئك القوم لفسقهم.

ثم إن النبي ﷺ قَرن المعازف بالمقطوع بحرمته، وهو الزنا والخمر، ولو لم تكن محرمة ما قرَنها معها، ثم أخبر عن أقوام من هؤلاء المستحلّين لهذه المحرمات أنهم ينزلون إلى (جنب عَلَم) وهو: الجبل العالي، وعندهم الراعي يسرح بمواشيهم، فيأتيهم الفقير ذو الحاجة فيقولون له: ارجع إلينا غداً ليعطوه (فيبيّتهم الله) أي: يهلكهم ليلاً، ويوقع الجبل ويدكّه عليهم، ويمسخ أقواماً منهم قِرَدةً وخنازير، أعاذنا الله تعالى من ذلك والمسلمين.

٥- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «سيكون في آخر الزمان خَسْفٌ وقذفٌ ومسخ» قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهرت المعازف والقيناتُ، واستُحِلّت الخمر» [2] .

١- أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الأشربة (٥١/١٠).

٢- أخرجه الطبراني في الكبير (٥٨١٠) وأخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الأوسط

وفي هذا الحديث أيضاً: يخبر ﷺ أنه سيكون في هذه الأمة «خسفٌ». ومعنى الخسف: هو أن يغيب المكان في باطن الأرض. «وقذفٌ» أي: رمي بالحجارة بقوة. «ومسخ» أي: تحويل الصورة الإنسانية إلى ما هو قبيح كالقردة والخنازير. ولما سئل متى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت المعازف» وهي: آلات الطرب وما يُعزف عليه. و«القينات» وهن الإماء المغنيات، واستحلت الخمر، أي: كثر شربها، حتى أشبهت الأمر الحلال عند الناس.

كما في مجمع البحرين (٤٤٨٧) وفي الصغير (٧٦/٢) ، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٢١٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. وهو حديث صحيح بشواهده.

٧- لعن الله عز وجل لهم

وقد أخبر تعالى عن هذه العقوبة التي أوقعها باليهود في آيات من كتابه، وذلك بسبب كفرهم، ووقوعهم في المعاصي والآثام، وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من سيئاتهم التي جلبت لهم خسارة الدنيا والآخرة؟ نعوذ بالله من حالهم!

ومَنَ لعَنَه الله تعالى فلن تجد له من يتولاه، أو يقوم بمصالحه، ولا من يحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان، عياذاً بربنا سبحانه.

فمن الآيات التي صرحت بلعنهم، قوله تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٨١).

ففي هذه الآيات بيانٌ لما حلَّ بكفار بني إسرائيل من اللعنة، على لسان نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى هما: داود وعيسى بن مريم عليهما السلام.

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: «لعنوا في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم، ولعنوا في الزبور على لسان داود».

«وقال قتادة: لعنهم على لسان داود في زمانه، فجعلهم قردة خاسئين، وفي الإنجيل على لسان عيسى، فجعلهم خنازير. وكذا قال مجاهد وأبو مالك» [1].

فهم إذن أصحاب السبت، وأصحاب المائدة.

ثم ذكر الله تعالى السبب الموجب لذلك فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله تعالى، ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي: يتجاوزون حدوده.

ثم ذكر مخالفة أخرى لهم فقال ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر، ولا عن ارتكاب قبيح ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذا قسم من الله تعالى ذكره، أي: أقسم لبئس الفعل كان فعلهم، مما سبق ذكره.

ثم قال ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: ترى يا محمد كثيراً من اليهود ﴿ مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ أي: يتولون المشركين من عبدة الأوثان، ويعادون أولياء الله ورسله!

﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: لبئس الشيء الذي قدمته لهم أنفسهم، أن غضب الله عليهم في الدنيا، وهم يوم القيامة في النار خالدون.

ولو كانوا موحدين مؤمنين حقاً، مصدقين بما أنزل على محمد ﷺ ما اتخذوهم

١- تفسير الطبري (٨ / ٥٨٦) .

أولياءً وأنصاراً من دون المؤمنين، إذ الإيمان بالله ورسوله وكتبه يمنع من تولي المشركين، ولكن كثيراً منهم خارجين عن طاعة الله، مستحلين لحرماته.

ومن الآيات أيضاً: ما جاء في سورة النساء، في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (النساء:- ٥١-٥٢).

فبسبب حسدهم للمسلمين، والذي حملهم على ترك الإيمان والدخول في الإسلام، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، من عبادة غير الله تعالى، وتحكيم غير شرعه، لعنهم الله عز وجل وطردهم من رحمته، وأحل بهم نقمته. ومن يلعنه الله، فلن تجد له ولياً ولا نصيراً ولا حافظاً.

ومن الآيات أيضاً: قوله سبحانه ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

فبسبب نقضهم للعهود، عاقبهم الله بعدة عقوبات أولها: لعنهم، أي: طردهم من رحمة الله تعالى وأبعادهم عنها، بما قدمت أيديهم، حيث أغلقوا هم على أنفسهم باب الرحمة، وقد سبق تفصيل القول في الآية في «صفة التحريف» عندهم.

ومن الآيات أيضاً في هذه العقوبة: قوله تعالى في سورة النساء ﴿مِّنَ

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء: ٤٦).

فقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنواعاً من ضلالهم وعنادهم، وإعراضهم عن قبول الحق بصريح القول، إذ قالوا: سمعنا وعصينا! وهذا غاية الكفر والعناد لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

وكذلك خطابهم للرسول ﷺ بخطاب قبيح لا أدب فيه، إذ قالوا له ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل ما تكره!

وكذلك قولهم له ﴿وَرَٰعِنَا﴾ وقصدهم بذلك الرعونة، ويموهون أن قصدهم: راعنا سمعك، يلوون ألسنتهم بذلك، قاصدين الطعن في دين الإسلام، والعيب لرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى ﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾.

فلهذه الذنوب العظيمة المكفرة، والكبائر الفظيعة المتتالية، لعنهم الله تعالى شأنه، وما ربك بظلام للعبيد.

أما ما ورد من ذكر هذه العقوبة لهم، في السنة النبوية المطهرة:

١ – فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: « لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا» قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً. [١]

قال العلماء: مفاد الحديث: منع اتخاذ القبر مسجداً، لتوجه اللعن لفاعله، وهو لا يكون إلا لمن وقع في كبيرة من الكبائر، الموجبة لغضب الله تعالى .

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأغلقوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره».

ب– وروى جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً... إلى قوله: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك». [٢]

قال الخطابي: «وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين:

١– رواه البخاري في الجنائز (١٣٣٠).

٢– رواه مسلم.

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله، والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

والأول: هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن».

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور، ويبنى عليها، ويصلى عندها وإليها، هذا أعظم مشاقة ومحادّة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون.

ومن غربة الإسلام، أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه، من اليهود والنصارى، وحذر أمته منه أن يفعلوه معه، أو مع غيره من الصالحين، قد فعله كثيرٌ ممن ينتسب لأمته ﷺ من متأخريهم! واعتقدوا أن ذلك قربة من القربات! وحسنة من الحسنات! وهو من أعظم السيئات والمنكرات، ومن الغلو المفضي للشرك برب البريات!

جـ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد» [1].

د- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد» [2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الأرضُ كلُّها مسجدٌ،

١- أخرجه أحمد (٤٠٥/١) والطبراني (١٠٤١٣) وغيرهما.

٢- أخرجه أحمد (٢٤٦/٢) وابن سعد في الطبقات (٣٦٢/٢) وأبو يعلى (٦٦٨١) وغيرهم.

إلا المقبرة والحمام» [1].

قال الإمام ابن القيم: وبالجملة، فمن له معرفةٌ بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهمٌ عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض، أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه – صيغة « لا تفعلوا» وصيغة «إني أنهاكم عن ذلك » – ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقلَّ نصيبه أو عدم من « لا إله إلا الله» فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً، وأشد فيهم غلوا، كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد!

ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة.

فجمع المشركون بين الغلو فيهم، والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وأنزلوهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم» [2].

وقال أيضاً: «يجب هدم القباب التي بنيت على القبور، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة

١- رواه أحمد (٣/٨٣ ، ٩٦) وأبو داود (٤٩٢) وابن ماجة (٧٤٥).

٢- فتح المجيد (٣٤٤-٣٤٥).

من الأبنية، منهم ابن الجميزي والظهير الترميني وغيرها.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً، مخافة الفتنة عليه، وعلى من بعده من الناس.

ومراده بالكراهة التحريم.

وجزم النووي في (شرح المهذب) بتحريم البناء مطلقاً، وذكر نحوه في شرح مسلم.

وقال القاضي ابن كج: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبني عليها قباب، ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي: في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه» وبظاهر الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال الزيلعي: في (شرح الكنز): ويكره أن يبني على القبر.

وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر، ولا يبني عليه، لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة عند الحنفية كراهة التحريم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا

وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه.

قال: ولا ريب في القطع بتحريمه. ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم، تتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين» [1].

٢ – ومن أسباب لعنهم: تحايلهم على المحرمات

كما جاء في الحديث الصحيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بلغ عمر رضي الله عنه أن سمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها – أي أذابوها – فباعوها». وفي رواية: «وأكلوا أثمانها» [2]

٣ – وما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود، لما حرَّم الله عليهم شحومها، جَمَلُوها ثم باعوها فأكلوها» [3].

وقد سبق الحديث عن هذه الخصلة الذميمة التي أوجبت لهم الطرد من رحمة الله تعالى.

نسأل الله تعالى العفو والعافية، في ديننا ودنيانا، وأهلنا ومالنا، اللهم استر عوارتنا، وآمن روعاتنا، يا أرحم الارحمين، وخير الحافظين.

وصلى‌الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبة اجمعين.

١- (فتح المجيد).

٢- متفق عليه.

٣- أخرجه البخاري (٢٢٣٦-٤٦٣٣) ومسلم (١٥٨١).

فِهرِس

المقدمة	٥
صفات اليهود في القرآن الكريم	٩
(١) معرفة الحق وكتمانه والتواصي فيما بينهم على ذلك	٩
(٢) تحريفهم لكلام الله تعالى وكتبه، وكلام رسله صلوات الله عليهم	١٣
(٣) نقض العهود	١٧
(٤) الخيانة	٢١
(٥) الإفساد في الأرض	٢٣
(٦) حرصهم على إيقاد الحروب	٢٥
(٧) التطاول على ذات الله تعالى	٢٧
(٨) قتل الأنبياء والرسل	٣٣
(٩) التطاول والاعتداء باللسان على الأنبياء والمرسلين	٣٧
(١٠) قتلهم خيرة الناس من العلماء والدعاة الى الحق	٤١
(١١) كثرة دعاويهم الباطلة وكذبهم على الله تعالى وترويحهم له الإشاعات	٤٣
(١٢) جدالهم الشديد وكثرة سؤالهم وتنطعهم في الدين	٥١
(١٣) نبذهم لكتاب الله تعالى واتباعهم للسحر والشياطين	٥٩
(١٤) لبس الحق بالباطل	٦١

(١٥) قسوة قلوبهم ٦٧

(١٦) كفرهم بنعم الله تعالى ٦٩

(١٧) تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى ٨١

(١٨) أكلهم أموال الناس بالباطل ٨٧

(١٩) صدهم عن سبيل الله تعالى ٩١

(٢٠) ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩٣

(٢١) حبهم وحرصهم على الحياة وجبنهم ٩٧

(٢٢) الحسد ١٠١

وعيد الله وعقوبات لليهود في القرآن والسنة ١٠٧

(١) ضرب الذلة عليهم ١١١

(٢،٣) غضب الله عليهم وضرب المسكنة ١١٥

(٤) تمزيقهم في الأرض وتسليط الله عليهم ١١٧

(٥) تحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم ١٢٥

(٦) عقوبة المسخ ١٢٩

(٧) لعن الله عز وجل لهم ١٣٥

صدر للمؤلف

١ – حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير (أربعة مجلدات).

٢ – مسائل ورسائل تهم الأسرة والمجتمع المجموعة الأولى.

٣ – مسائل ورسائل تهم الأسرة والمجتمع المجموعة الثانية.

٤ – مسائل ورسائل تهم الأسرة والمجتمع المجموعة الثالثة والرابعة.

٥ – مسائل ورسائل تهم الأسرة والمجتمع المجموعة الخامسة.

٦ – مسائل ورسائل تهم الأسرة والمجتمع المجموعة السادسة.

٧ – بشرى المخبتين بفضل الصبر والصابرين.

٨ – مسائل في الاعتصام بالكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

٩ – التبيين والشرح لمذكرة المصطلح (شرح مذكرة في مصطلح علم الحديث).

١٠ – العقيدة السلفية، ويليها فضل الحديث النبوي وشرف أهله.

١١ – المواعظ السنية في رؤيا خير البرية.

١٢ – الكلمات البينات في أحكام حداد المؤمنات، ويليه مختصر في آداب وأحكام الجنائز.

١٣ – فضل عشر ذي الحجة، ويليه أحكام الأضحية.

١٤ – القول الثبت في صوم يوم السبت.

١٥ – قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان.

١٦ – مجالات عمل المرأة المسلمة المعاصرة.

١٧- المرأة المسلمة والحجاب.

١٨ - نبذ من آداب المعلمين والمتعلمين.

١٩ - الكلم المجموع في الهجر المشروع.

٢٠ - سؤال وجواب في الشهر الكريم، يليه: التنبيه على أحاديث ضعيفة مشتهرة وأخطاء شائعة في شهر الصيام.

٢١ - آداب الأسفار.

٢٢- المخرج من الفتن.

٢٣ - مختصر في كيفية الحج والعمرة.

٢٤ - أمة الإسلام أمة عبادة ودعوة لا أمة لهو وطرب.

٢٥ - ما الذي نرجوه من صيامنا.

تم الصف والإخراج في

شركة إيت جيتس للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

8GATES
ADVERTISING
شركة إيت جيتس للدعاية والإعلان

تلفاكس: 24756665 - الكويت

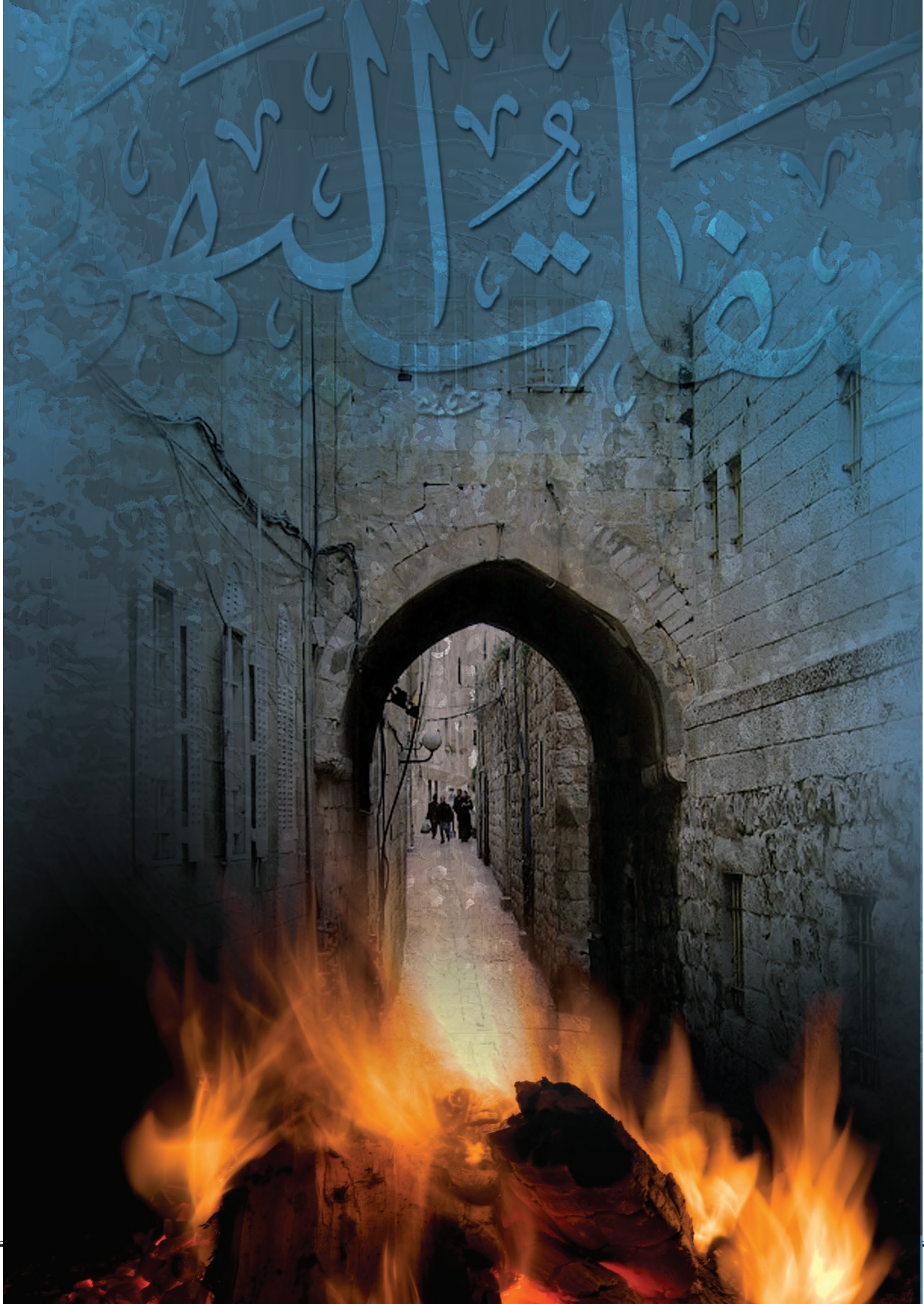
نفحات الشهر